الأدب المثمن

أحمد عبد الله الدامغ

الجزء الرابع عشر



مركز سعود البابطين الخيري للتراث والثقافة
قسم الدراسات والبحوث والنشر
الرياض ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

ح احمد عبدالله الدامغ، ١٤٢٤ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الدامغ ، احمد بن عبدالله
الادب المثمن / احمد بن عبدالله الدامغ - الرياض، ١٤٢٤ هـ
١٦ مج. ، ٣٣٦ ص ، ١٧ X ٢٤ سم
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)
١- الادب العربي - مجموعات أ- العنوان
ديوي ٨، ٨١٠ ١٤٢٤/٢٧٧٣

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٧٧٣
ردمك: ٥-٣٣١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
٣-٣٣٢-١٠-٩٩٦٠ (ج ١)

المملكة العربية السعودية ص.ب ٩٣٩٢٧ الرياض ١١٦٨٣ هاتف ٤٨٧٠٥١٣
فاكس ٤٨٧١٤٢٧ / ٣٦
الموقع على الأنترنت
www.albabtain-center.com
البريد الألكتروني:
E-mail: info@albabtain-center.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــة

أيها القارئ الكريم: لقد عرضت على أحد الأصدقاء الأفاضل الذين لهم علم بالأدب والمعرفة والثقافة بعض مسودات أجزاء هذا الكتاب، فأظهر إعجابه بها.. فقلت في نفسي: إما أن يكون ذلك مجاملة منه وتشجيعاً لي، أو أنه إعجاباً حقيقياً فرضه الواقع، وهذا ما لا أعرفه بالطبع.

ولقد كان اقتراحه على أن أهديه إلى من يكتب مقدمة له؛ لأحصل على شيء من الإطراء. فقلت: إنَّ علماءنا الأجلاء الذين يستحقون إهداءً أكبر وأكثر منه، هم في شغل شاغل، وهذا الكتاب ليس بكتيب وإنما هو وابل صيب يحتاج إلى وادي فحل، وربوة ذات قرار وسهل.. والأمر ليس كما استبسطته.

أما ما عدا علماؤنا الأفاضل الذين لا يساجلهم مساجل فإني أنزهه وأكبره وأجله عن أقلامهم. مستعيراً للتعبير عن علو مكانته عنهم قول الشاعر أبي الحسن علي بن أبي عمر السجزي النَّوقاني:

أصـون كـتـابـي عـن يـد لا تـصـونـه
صـيـانـة نـفـسـي عـن أخ لا يـصـونـهـا

المؤلف
أحمد عبد الله الدامغ
ص.ب: ١٠١٣٨ الرياض ١١٤٩٩

ما بكى أحد قط بكاء التهامي على قط

يألف الإنسان بعض الأشياء فيجد نفسه مستأنساً لوجودها إلى جانبه أو وجوده هو إلى جانبها فتصبح جزءاً من حياته اليومية فيعز عليه فراقها بل إنه يحزن لفقدها ويتألم، خاصة إذا كان الذي ألفه حيواناً يناله من سلوكياته وأخلاقه وطباعه منفعة شخصية، وذلك كالكلب حينما يكون حارساً، أو كالحمار إذا كان يُتَنَقّلُ عليه، أو كالبقرة التي يَتَمنّحُها أو ما إلى ذلك من الحيوانات التي لطباعها علاقة بحياته، أو صلة بخدمته مثل القط الذي يأكل خشاش الأرض الذي يؤذي إذا حلّ بالدار، ويقتل الحيات السّامة وما إلى ذلك من القوارض التي تفتك بما يخزن من غذاء كالفئران وغيرها.

والشعراء أكثر ملاحظة لإبراز صورة تأثر الإنسان بسبب فقد ما يألفه من الحيوانات.. كيف لا ونحن نقرأ العديد من مراثيهم للكلاب والجمال والقطط وغير ذلك مما تتسع له صورة الرثاء من الأشياء الحية وغير الحية مما يألفه الإنسان، كالمنازل والديار وكل ما يستوطنه وتفرض عليه الظروف تركه ومغادرته.

والشاعر التهامي واسمه: أبو الحسن علي بن محمد التهامي المولود بمكة المكرمة عام ٣٦٠هـ والمتوفى في القاهرة سنة ٤١٦هـ قد ساهم بمشاعره مساهمة أدبية في تصوير التأثر لفقد ما يؤلف من الحيوانات، وذلك حينما سقط قط له في بئر ومات بسبب سقوطه، فكان موته فاجعة حركت قريحته الشعرية فجادت بصنع قصيدة رثى بها ذلك القط. منها قوله:

ولما طواك البين واجتاحك الردى
بكيناك ما لم يبك قطٌ على قِط

لقد كنتَ أُنْسي في الفراسن لوحدتي
إذا بعُدتْ ذاتُ الوشاحين والقرط

وقد كنت تحمي ما يدب من الأذى
إليَّ بدان منك إذ كان في شحط

وتحرسني كالليث يحرس شبله
ويقتل من ناوأه باللطم والخبط

ولو كنت أدري أن بئراً يغُولُني
بهواك فيه لاحتبستك بالربط

ولكن أيدي الحادثات مصيبةٌ
إذا أرسلت سهم المنية لا تخطى

فمن ذا الذي أنعاه منك وما الذي
أُعدّده من كفك الباطن السبط

ومن حسن لون في قميصك إنه
قلائدك الدر المنظم في السمط



مهنة الأدب وحرفة الكتابة

تنأى بصاحبها عن التجارة

ويتردد قولهم: «مهنة الأدب لا تُؤَكل عيشاً» في كل عصر يكون لأهله فيه اشتغال بحرفة الأدب ومهنة الكتابة، ولهذا فإنه كلما دار الحديث عن مهنة الأدباء وحرفة الكتابة أصبح الحديث ذا شجون تتصل بحالة الأديب المادية، فيتم استعراض مَنْ يُعرف من الكتّاب والأدباء استعراضاً يقصد به بيان حالاتهم المادية، وربما يعرض أثناء ذلك سؤالاً يقول: هل سجل التاريخ الأدبي اسم أديب أصبح تاجراً بسبب أدبه؟ فتتعذّر الإجابة إلّا عن ذكر حالات شاذة لا تصلح إجابة مقنعة يلتفت إليها في سجل سير أصحاب حرفة الأدب.

أما واقع الحال الذي نعايشه في عصرنا هذا فإنه يعرض أمامنا صوراً قياسية ناطقة بصحة قولهم. فمهنة الأدب لا تؤكل عيشاً.

ولقد التفت إلى هذه الظاهرة العجيبة بل الغريبة كثير من أصحاب الأقلام فأكدوا أنه منذ أن أصبح الأدب مهنة والكتابة حرفة وتخصصاً، والأديب والكاتب لا يتدرج في الرسم البياني مع أصحاب المهن والحرف الأخرى الذين يحققون بمزاولة مهنهم مكاسب مادية تضمن لهم الرفاه ورغد العيش، ويتحفنا الشعراء ببعض الالتفاتات إلى هذه الخاصية الموقوفة على الأدباء والكتاب بشيء من الأسلوب الجاد حيناً، وبالهزل حيناً آخر، ويرسمون الصورة في أشعارهم رسماً حقيقياً بمعاناة أولئك، ويصور واقع حياتهم.

من أولئك الشعراء الشاعر أبو الحسن علي بن محمد التهامي المولود عام ٣٦٠هـ تقريباً والمتوفى عام ٤١٦هـ وذلك بقوله:

الآن قد صحّ لي حقاً بلا كذب
من كثرة الحَرْفِ أني من ذوي الأدب

لأن للدهر أحوالاً تدل على
أن الذي نابهُ منه بمنقلب

كم قائل قد رأى حالي وقد رُزئت
مقالةً صدرت عن قلب مُكتئب

حتى متى أنت لا تنفك مغترباً
تعتاض مربعها بالبؤس والعطب

فقلتُ دونك لومي لا تُفَنّدُني
يكفيك ما قد أقاسيه من النوب

وبقوله من نفس القصيدة:

ماذا أؤمله حسبي به أدبي
إذا غدت راحتي صفراً من الأدب

ما نلت من أدبي حالاً حظيت بها
إلا ارتسامي بتهذيبي لعقل صبي

أظل أكسبه عقلاً ويكسبني
جهلاً حظيت به في العجم والعرب



كيف تتم معرفة ناكث الصحبة والصداقة؟!!

إن لم يقم للصداقة بناء في الأصل فذلك وارد في حياة كثير من الناس. إذ أن بعضهم لا يقيم صداقة مع الآخرين على الإطلاق، لأنه يتعامل مع الناس وفقاً للظروف التي تحيط به، واستجابة لما يربطه بهم من تعامل لا يمت لمعنى الصداقة أو الصحبة بأية صلة.

ولكن الذي يلفت النظر ويشغل الفكر، ويشكل بمعناه ومفهومه مادة يكون للأقلام فيها مرتع، هو ما يصيب الصداقة القائمة من تصدع وتعطيل لأركانها وواجباتها بل تفكيك روابطها الوثيقة تفكيكاً يحيلها إلى حالة كأنها معها لم تكن.

وإذا ما أنْبَتّ حبل الصداقة، وتساقطت لبنات بنائها فإن السؤال يبرز في هذه الحالة باحثاً عن معرفة المتسبب في انهيارها. أهو أحد المتصادقين أم أن الهدم حصل من كليهما، وحيث أنه من المعتاد أن نقض الصداقة كثيراً ما يقوم به أحد المتصادقين وليس كليهما، فإن البحث عن مصدر انهيار أية صداقة قائمة محتمل من لدن الذين لهم خبرة في طرح الرأي الإصلاحي، وصناعة الحكمة. والباحث في معرفة المتسبب حينما يدع السؤال عنه جانباً ويلقي بسمعه لأحاديث من قد انهارت صداقتهم، سيعرف من خلال حديث أي منهم مَنْ الذي نكث الصداقة، فالاستغراب عندما يظهر على أحدهم حين سؤاله يدل على أنه ليس له يد في قطع حبل الصداقة، أما الشاعر فإنه إذا نكث صديقه أو حبيبه أو صاحبه ما قام بينهما من صداقة فإنه يعرض ذلك في لغة شعرية نتبين منها أنه ليس بالذي نقض عهد الصداقة والصحبة أو هدم

كيانهما. وذلك مثل ما قال الشاعر حبيب عوض الفيومي في قصيدته التي عرض فيها حالة ناكث لحبه وصداقته وذلك بقوله منها:

أخا الود قل لي ماذا حدث
لقد رث عهدك ثم انتكثْ

أعيذك من شين نكث العهود
وإن كان كل أخ قد نكث

ومن صفة الورد طيب الأريج
فماذا دهى الورد حتى خبث

لئن خانني ثلثا رفقتي
فإني أعدك أوفى الثلث

فإما عهودي جميعاً لديك
وإما عهودك كانت عبث

وتلك عهودي لا تسترث
إلى أن يهال عليّ الجدث

ومنها قوله:

وما الحر إلّا بصدق الوفاء
ولا المرء إلا حديثاً يُنَثْ

ومنها قوله:

وإني أعد الفتى من وفى
ولست أعد فتى من حنث



عشر.. الخضري!!

والخضري هو حكم بن معمر الخضري، شاعر عباسي ذكر أبو فرج الأصبهاني في الأغاني.. كان مقدماً في قومه. وكان بينه وبين رماح بن ميادة مهاجاة ومناقضات.. روى الأصفهاني أن من أسباب بعضها أن ابن ميادة ـ وحكم الخضري تواعدا ـ عريجاً وهي ماء يتواقفان عليها، فخرج كل منهم في نفر من قومه فالتقيا وتناشدا. ثم تواعد بأن يتوافيا بحمى ضرية، وكان ذلك العام جدباً وليس من كلاء إلّا بضرية، فسبق حكم إليها ونزل على مولاة لعكاشة بن مصعب بن الزبير ذات مال ومنزلة من السلطان، وكان حكم كريماً على الولد هناك يتقي لسانه، وما إن نزل هو ونفر من قومه بينهم ريحان بن سويد الخضري. وحطوا براذع دوابهم إذا برماح وأخيه ثوبان يقبلان يتسايران فلما رآهما حكم عرفهما فقال: يا ريحان هذا من أبناء أبرد فما رأيك. أتكفيني ثوبان أم لا؟ قال: فأقبلا نحونا ورماح يتضاحك حتى قبض على حكم وقال: مرحباً برجل سكتُ عنه ولم يسكت عني. وأصبحت الغداة أطلب سلمه يسوقني الذئب والسنة. وأرجو أن أرعى بجاهه وبركته ثم جلس إلى جنب حكم. وجاء ثوبان فقعد إلى جنبه. فقال له حكم: أما ورب المرسلين يا رماح لولا أبيات جعلت تعتصم بهن وترجع إليهن يعني أبيات لابن طالب جد ابن ميادة، لاستوسقت كما استوسق من كان قبلك. قال ريحان: وأخذا في حديث أسمع بعضه ويخفى علي بعضه. فظللنا عند المرأة وذبح لنا وهُما في ذلك يتحادثان مقبل كل واحد منهما على صاحبه حتى كان العشاء فشددنا للرواح نؤم أهلنا. فقال رماح لحكم: يا أبا منيع ـ وكانت كنية حكم ـ قد قضيتَ

حاجَتَك وحاجة من طلبت له من هذا العامل، وإن لنا إليه حاجة في أن يُرعينا. فقال حكم: قد والله قضيت حاجتي منه وإني لأكره الرجوع إليه وما من حاجتك بُدّ. ثم رجع معه إلى العامل فقال له: إن هذا الرجل قد عرفت ما بيني وبينه وقد سأل الصلح وأناب إليه فأحببتُ أن يكون ذلك على يدك. قال: فدعا له عامل ضرية، وقال: هل لك حاجة غير ذلك؟ قال: لا والله ونسي حاجة رماح فأذكرته إياها فرجع فطلبها واعتذر بالنسيان. فقال العامل لابن ميادة: ما حاجتك؟ فقال: ترعيني عويجاء لا يعرض لي فيها أحد فأرعاه إياها فأقبل على حكم فقال: جزاك الله خيراً فوالله لقد كان ورائي من قومي من يتمنى أن يرعى عريجاء بنصف ماله. فانصرفا راضيين وانصرف ابن ميادة إلى قومه فوجد بعضهم قد ركب إلى ابن هشام فاستغضبه على حكم. فاستاء رماح من ذلك وقال: عمدتم إلى رجل قد صلح ما بيني وبينه. وأُرعيت بوجهه فاستعديتم عليه ابن هشام.. وأما حكم فخاف من ابن هشام وراح إلى الشام ومات هناك... ومما ذكره الأصفهاني من هجاء حكم لرماح وقومه. وحصره في المداد. قوله:

فيا مرّ قد أخزاك في كل موطن
من اللؤم خلات يزدن على العشر

فمنهن أمن العبد حامي ذماركم
وبئس المحامي العبد عن حوزة الثغر

ومنهن أن لم تمسحوا وجه سابق
جواد ولم تأتوا حصاناً على طهر

ومنهن أن الميت يدفن منكم
فيفسو على دفانه وهو في القبر

ومنهن أن الجار يسكن وسطكم
بريئاً فيلقى بالخيانة والغدر

ومــنــهــن أن عــذتــم بــأرقــط كــودن

وبئس المحامي أنت يا ضرط الجفر

ومنهن أن الشيخ الضغن يخشى احتراشها

وإن هي أمست دونها ساحل البحر

ولقد نقض ابن ميادة هذه العشر بعشر منه. سأذكرها في موضوع يلي هذا الموضوع إن شاء الله.



عشر... ابن ميادة!!

في موضوع تقدم. ذكرت تحت عنوان «عشر... الخضري» وأشرت إلى ما أفاد به الأصفهاني عما كان بين ابن ميادة والخضري من علاقة تضعف وتقوى بحسب الظروف التي يمران بها. وعن تلك العشر التي صنعها حكم ابن معمر الخضري في قصيدة هجائية هجا بها ابن ميادة وقومه.

وابن ميادة هو الرماح بن أبرد بن ثوبان بن سراقة ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وقد ترجمت له في الجزء الرابع من هذا الكتاب، وذكرت سبب نسبته إلى أمه ميادة.

أما في هذا الموضوع فسأنظر إلى رد ابن ميادة على عشر.. الخضري، كما وعدت وحتى تستكمل الفائدة وتتم المعرفة، وينظر بموجبه إلى المقارنة، إذ هو رد قام فيه التعادل الهجائي بينهما حيث تعادل الاتهام وتساوى التحقير فيما قالاه في تهاجيهما، فكان رد ابن ميادة عبارة عن نقض هجاء حكم الخضري. حيث قابل عشراً بعشر فقال في عشره:

لقد سبقت بالمخزيات محارب
وفازت بخلات على قومها عشر

فمنهن أن لم تعقروا ذات ذروة
لحق إذا ما احتيج يوماً إلى العقر

ومنهن أن لم تمسحوا عربية
من الخيل يوماً تحت جل على مهر

ومنهن أن لم تضربوا بسيوفكم
جماجم إلّا فيشل القرح الحمر

ومنهن أن كانت شيوخ محارب
كما قد علمتم لا تريس ولا تبرى

ومنهن أخرى سوأة لو ذكرتها
لكنتم عبيداً تخدمون بني وبر

ومنهن أن الضأن كانت نساءكم
إذا أخضر أطراف الثمام من القطر

ومنهن أن كانت عجوز محارب
تريغ الصبي تحت الصفيح من القبر

ومنهن أن لو كان في البحر بعضكم
لخبث ضاحي جلده حومة البحر(١)



(١) هذا هو البيت التاسع من جملة الأبيات، وقد كان كالوخزة في الجسم إذا ما شبهت التزامي في منهج تأليف هذا الكتاب بالجسم. حيث ألزمت نفسي بأن لا يقل الشاهد من الشعر لكل موضوع عن ثمانية أبيات. ولا تزيد عليها بأية حالة. لكن الظروف التي لازمت عد المثالب عند ابن ميادة جعلتني أورده وأعتبره حالة استثنائية أرجو أن لا تتكرر مرة ثانية.

متى يصح للشعراء الذم والهجاء
ومتى يجوز لهم المدح والثناء؟!!

ونحن إذا ما أظهرنا رضى وحسن قبول للشاعر المداح فهذا شيء ربما كان مطلوباً منا. حتى نحمله على قول المديح. ونبتعد به عن قول الهجاء والتجريح، على أن نحاسبه في المديح على المبالغات التي لا تنسجم مع معتقداتنا الدينية، لكنه إذا ما هجا وحدد صور الهجاء من واقع حالة المهجو، فإن الصواب يبتعد بنا عن تخطئته، لأنه إذا ما غفل هو عن هجاء اللؤماء مثلاً فمن أي طريق نعرّف اللؤماء بلؤمهم تعريفاً يبقى في ذاكرتهم، وربما حملهم على الأخذ بالطريق السوي.

والحق كل الحق مع الشاعر المعاصر حبيب عوض الفيومي حينما عرض هذه الصورة التي أكد فيها مسؤوليته، ورأى أن له دوراً مهماً في عرضها.

اسمعه وهو يحقق لزميله الشاعر مسؤوليته تلك:

وإذا عـقـلـتَ عـن ذم ذي الـلـؤ
م فـمـنـذا يـمـيـز الـلـؤمـاء

والشاعر بطبيعته لا يذم إلا بعد أن ييأس من وجود أسباب تقوده أو توجب الثناء، وقد التفت الفيومي إلى هذه النقطة في قصيدته بقوله:

لا تـلـومـنّ شـاعـراً هـجـاء
فـهـو قـبـل الـهـجـاء يـبـغـي الـثـنـاء

هذا إذا كان الشاعر متجرداً لا يدفعه إلى الذم أو المدح إلّا واقع

قد لمسه، وأحب أن يُعْلِمَ الناس به، أما إن كان غير متجرد فذلك ما أشار إليه الفيومي:

غير من كان في الهجاء أجيراً
فهو شر البرية استثناء

إنما الشعر كالسماء صفاء
أيما كائن حواه أجاء

والشاعر الواقعي الذي يبحث عن الحقيقة ليقولها شعراً، يأتي شعره كالسماء صفاء. وكالنمير عذوبة، والميزة هي فيما يجري عليه هذا الماء من الأرض حيث تختلف طبيعة الأرض، من مكان إلى آخر، فأرض تستقبل هذا النمير وتنبت الكلاء. وأرض يصيبها النتن بمجرد جريانه عليها. وهذا وصف جميل قد أتى على ذكره الفيومي في قصيدته بقوله:

وهو مثل النمير إن صادف الجر
بة بين البطاح زاد صفاء

وإذا ما جرى على الحمأ النتن
بث السقام والأدواء

وهو مثل المرآة يعكس ماقا
بل مدحاً مُدَبّجاً أو هجاء

وعجيب إنكار ذي المنكر الهجو
وعنه أتى ومنه تراءى

أخيراً تبقى الإشارة إلى أنه جاء في الأثر: إن الله يغضب إذا مدح الفاسق.



وصفوه بالإيدز فصح منهم الوصف!!

والإيدز هو ذلك المرض الذي عز دواؤه حتى الآن، وأصبح يفتك في العالم فتكاً مرعباً، وقد عرفوه بأنه فيروس خبيث يصيب جهاز المناعة عند الإنسان، فلا يعد جسم المصاب به قادراً على مقاومة أي عارض مرضي بسيط ليس بذي شأن عند الأصحاء.

أما الذي وصفوه بالإيدز، وشبهوه به فذلك شيء غزا أدبنا العربي وبخاصة الشعر منه، وقد عرف بالشعر الحر. أو المنثور. والذي سبق ظهوره ظهور مرض الإيدز بفترة وجيزة من الزمن. فأصبح وكأنما هو مقدمة لذلك المرض الخبيث.

وكما أن العلماء من الأطباء قد جندوا أنفسهم للبحث عن مضاد أو علاج ناجع للقضاء على ذلك المرض الخبيث الإيدز، وأخذوا في اتخاذ التجارب التي يهدفون من ورائها إبادة هذا الفيروس المسبب لذلك المرض. . فإن الغيورين من الأدباء والنقاد والشعراء على صفاء أدبنا وتنقيته من أي شائبة تشوبه، أو أي قذى يكدر صفو مورده، أو يكشط وجه أصالته قد وقفوا بكل حزم وعزم أمام هذا الشعر الحر الذي نعتوه بالإيدز من حيث طبيعته المعدية ومصدره الجغرافي.

سئل الشاعر محمد مغربي مكي عن رأيه في الشعر الحر، فقال: هو في رأيي بلية مثل الإيدز وثقب الأوزون وبه صار الشعر مهنة من لا مهنة له، وبضاعة من لا بضاعة عنده. وصار كل من هب ودب وأمسك القلم شاعراً: تراه مفلساً في اللغة والنحو والموسيقى والفكر والمعنى. وتجئ المحصلة إفلاساً شعرياً مضحكاً أو مبكياً. وإلى جانب هذا الرأي

يترجم الحالة السيئة التي جلبت مداخلات كان السبب في وجودها وقيامها تساهل الشعراء والنقاد واللغويين في الوقوف في البداية في وجه ذلك الغريب الذي ليس من شيعة شعرنا، ولا من فصيلة أدبنا. قلت: فهو إلى جانب تلك الإجابة النثرية قد أكد رأيه هذا في قصيدة منها قوله:

إن صار قول الشعر همهمة
جوفاء لا تخفى ولا تعرى

وارتاحت الأقلام من قلق
سماه ناس غيرنا.. فكرا

وانداحت الأفكار باهتة
سطحية التيار والمجرى

يا أيها الشعراء ما أحرى
أن تبحثوا عن مهنة أخرى

إن صار نبض الشعر دمدمة
فوضى فلا وزناً ولا بحرا

وانهد صرح النحو فارتعشت
ألفاظنا مهزوزة حيرى

وانحطت الأبيات عاجزة
شوهاء.. لا شعراً ولا نثرا

يا أيها الشعراء ما أحرى
أن تبحثوا عن مهنة أخرى

والقصيدة أطول من ذلك وقد قرأتها منشورة في «جريدة الرياض» العدد ١٠٢٢٢ يوم الأربعاء ٢ صفر عام ١٤١٧هـ.

العود على البدء

ويتكرر في بعض الملاحظات والاستدراكات قولهم: «عود على بدء» وقد يجعلونه عنواناً لموضوع يناقش فكرة سبق وأن طرحها صاحب الموضوع نفسه، وكان قصده من ذلك أن يستدرك القارئ للموضوع الجديد ما كان معروضاً في الموضوع السابق، أو أن يُصِرَّ المتحدث على رأي كان قد افتتح به حديثه فيؤكده بإعادة نصه، أو بما يربط لاحق حديثه بسابقه.. وإذا تجاوزنا تطبيقه على الحديث فإنه يحتمل تطبيقه على بعض الأشياء الأخرى، كالعودة من الطريق إلى بدايته، أو كممارسة عمل بعد الانقطاع عنه. أو ما إلى ذلك مما يدل على الرجوع إلى شيء قد تُوقِفَ عنه وما زال له بقية.. وذلك لأسباب وجيهة ودواع قائمة على القناعة بالإعادة.

وإذا ما أردنا أن نرسم صورة تقرب مفهوم قولهم: «عود على بدء» فإن لدى بعض الشعراء طريقة يتخذونها في صنع بعض قصائدهم، ويلزمون بها أنفسهم كأسلوب متميز يعيدون به في آخر القصيدة نص ما بدأوها به. وذلك كقول أحدهم عند ما يريد ختم قصيدته: «وآخر قولي مثل ما قلت أولاً»[1] ومن الشعراء الذين وسموا قصائدهم بهذا الميسم الذي يمثل عطف صدر أو عجز البيت الأخير من القصيدة على صدر أو عجز مطلعها بنفس النص. الشاعر زين العابدين بن أحمد بن زين

(١) وهذا صدر بيت لامرئ القيس ختم به قصيدة له وعجزه: «لمن طلل بين الجدية والجبل» وهذا صدر بيت افتتح به تلك القصيدة ونصه:

لمن طلل بين الجدية والجبل   محل قديم العهد طالت به الطيل

العابدين بن محمد بن البكري المتوفى سنة ١١٠٧هـ الذي قال في مطلع قصيدة له:

أما وانعطاف الغصن من هيف القد
وماء الحيا والروض من جنة الخلد

ومنها قوله:

أما والهوى العذري والصدق والوفا
وما كان قبل الجدِّ آدم من عهد

أَلِيّةَ برّ أقْسَمَ الصدق إنه
مقيم على تلك الصبابة والوجد

بأن عزامي والعفاف تخلفا
بَلَغتُهما قبل السكون إلى المهد

وأنّي أيا ذات الجمال تعبُّدي
بدين الهوى التحقيق معتقد عندي

ومن حضرة الإطلاق كنتُ فتى على
يقين بأني مطلق الحب في القصد

فنائي به عين البقاء وغيبتي
حضوري وغيّي في عوالمه رشدي

ويختمها بهذا البيت الذي عطف عجزه على صدر بيت مطلعها:

وما أقسم الصب المشوق بقوله
أما وانعطاف الغصن من هيف القد



ساقته المَنيّة!!

والموت بواقعه الذي لا مَفَرّ منه ليس مما يمكن الحذر منه. ولا هو يأتي في هيئة يعرف بها فيتقى بالفرار. أو بالاجتهاد في الابتعاد عنه. وإنما هو يأتي بالصفة التي جاءت في قوله تعالى في الآية ٨ من سورة الجمعة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

والملاقاة تحتم عدم النجاة حتى من العدو. أما إذا جاء من الخلف فربما تكون النجاة ممكنة بالفرار منه. لكنه إذا كان ملاقياً لا لاحقاً فهل يمكن النجاة؟ بالطبع. لا.

وعلى هذا فإنه لا مناص ولا مفر من ملاقاة الموت. وحتى أخذ الحيطة والحذر من الوقوع في مسبباته لا تحول دون ملاقاته. وحتمية الملاقاة تقرر القطع بعدم النجاة أو الإفلات منه بأي حال من الأحوال.

والعامة من الناس تقول: «ما يرد الحذر من القدر».

والموت إذا حضر أحداً لا يقيله. ولا يمهله. فهو إما أن يباغته. أو يتسلل إلى روحه من خلال فترة اعتلال الجسم واستفحال المرض.

والعامة تقول أيضاً إذا سافر شخص من أهله ثم مات أثناء سفره أو ساعة وصوله إلى المكان الذي قصده: «ساقته المنية إلى...» ثم يذكرون اسم المكان الذي توفي فيه.

ومما يناسب هذا الموضوع من شعر رثائي، ما قاله الشاعر السيد

إسماعيل بن محمد بن الحسن بن القاسم الحسني الزيدي المتوفى سنة ١٠٠٨هـ من قصيدة رثى بها والده وأخاه يحيى:

هل أقال الموتُ ذا حَذرَه
ساعةً عند انتهاء عُمُرِه

أو تراخى عن كحيل رنا
فاق كل الغيد في حوره

أو رثى يوماً لمرضعة
طفلها ما دبّ في حُجرِه

أو تراه هائباً ملكاً
صائلاً قد غز في نفره

أو تناسى من له نظر
تصدر الأشياء عن نظره

أو تحامى روح سيدنا
مصطفى الرحمٰن في بشره

بل دهى من كان منتظراً
قُرْبَه أو غير منتظره

وسقاه كأس سطوته
مُدْهقاً من كفّ مُقتدره

والقصيدة طويلة أوردها المحبي في كتابه «نفحة الريحانة».



زنا العين!

والذي يجعل العين في منأى عن الوقوع، أو الوقوف في موقف التهمة. هو التمسك بما أبيح لها مما تنظر إليه.

أما فيما لا يباح لها ولكونها لها خطرات تخرج عن إرادة صاحبها فقد صح أن لها النظرة الأولى. أما النظرة الثانية فقد حرمت عليها. وذلك وقاية لصاحبها من الوقوع فيما يدنسه أو يصنعه في موضع التهمة.

ولهذا قالوا: العيون تزني، وذلك في حالة إدامة النظر فيما هو محرم عليها بشكل يستنطق اللسان، فيكون ما لم يكن قد كان، وقد عبروا عن ذلك بقولهم: النظرة مفتاح الابتسامة. والابتسامة مفتاح الكلام.

وإذا توقفنا عند القول بأن العين تزني وجدنا أن في هذا النص الحرفي للفظة «زنى» ما يحدث في النفس اشمئزازاً وفي الأذن نفوراً لعدم لياقة تضمينها في الحديث وآداب المحادثة. لكنها إذا جاءت من زاوية بعيدة عن معناها الحقيقي فربما تستحسنها الأذن وتطمئن إلى ما يرمز بها إليه فيما ليس له صلة بمعناها الفعلي بقدر ما له صلة بمدلولها اللفظي فقط.

ولقد تلاعب الشعراء بهذه اللفظة «زنا» أيما تلاعب واستخدموها استخدامات متنوعة وعجيبة. وابتعدوا بها عن مفهومها ابتعاداً، الغاية منه ترجمة جانب من لغة العيون ليس إلّا.

ومما تلاعب به الشعراء بلفظة الزنا قول أحدهم:

نـظـرتْ مـن خـلال الـسَّـجـ
ف كـشـمـس مـن دجـون

وعـلـيـنـا رقـبـاء
هـجـروا نـوم الـعـيـون

فـتـطـارحـنـا هـوانـا
بـرسـالات الـجـفـون

وزنـيـنـا بـعـيـون
ورجـمـنـا بـظـنـون

وقال الشريف أبو الحسن علي بن حيدر:

امـتـصّ حـمـرة خـده
بـالـلـحـظ طـرفـيّ إذ رنـا

فـجـلـدتـه بـدمـوعـه
والـحـد يـلـزم مـن زنـى

ولقد رأى الوأواء الدمشقي أن الدموع تذنب وطلب إلى المتسبب في جريانها ومدمعه أن يعينه على تأديبها:

أيا ملزمي ذنب الدموع التي جرت
فـأبـدت مـن الأسـرار كـل مـصـون

أعـنِّـي عـلـى تـأديـب دمـعـي فـإنـه
يـنـوب إذا مـا كـنـت أنـت مـعـيـن



أساليب خدمة الحجيج تتطور عاماً إثر عام!!

ومنذ أن وحّد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود المملكة العربية السعودية، وخدمة حجاج بيت الله الحرام تأتي على رأس قائمة الأولويات، بحيث تشمل جميع ما يتعلق بخدمة الحجيج بصفة عامة بدءً بالأمن. ومروراً بالصحة. وانتهاء بتقديم الخدمة المتمثلة في تسهيل تنقلاتهم في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة، والحفاوة بهم حتى مغادرتهم أرض المملكة.

وبعد انتهاء موسم كل حج تتم دراسة الأساليب التي اتخذت لخدمة الحجاج فترصد السلبيات منها وتدرس الحلول الجذرية لها لتواكب الإجابيات في الموسم الذي يليه، وهكذا يمضي الاهتمام بشؤون الحج والحجاج موافقاً لرأي العلماء واجتهاداتهم الموفقة التي يراعون فيها تسهيل ما يرون فيه مشقة وضرراً على الحجاج ولا يخل بأركان الحج وواجباته.

ومضت السنون تلو السنين وأساليب خدمة الحجاج تتطور من حسن إلى أحسن حتى بلغت في عامنا هذا ١٤١٦هـ رقماً قياسياً شهد به كل من حج هذا العام.. شهادة فيها ما يثلج صدر حكومتنا الرشيدة التي كم سهرت وتسهر على راحة الحجاج، وتحقق سلامتهم من ساعة قدومهم إلى المملكة إلى لحظة مغادتهم. ويد عنايتها بعد الله ترافقهم.

ورأيي الخاص في هذه الجهود المنقطعة النظير يقتصر في هذا المجال على القول بأن حكومتنا الرشيدة لا ترجو من وراء ذلك منّا ولا شكراً من أحد، وإنما ترى ذلك واجباً دينياً مقدساً ترجو من إسدائه المثوبة والأجر من الله.

ومن الذين شهدوا ببلوغ الرقم القياسي لخدمة الحجاج والسهر على أمنهم وأمانهم هذا العام ١٤١٦هـ الشاعر الدكتور عبد الخالق مساعد الزهراني، حيث سجل هذه الشهادة في قصيدة له منها قوله:

ضيف أتى قد سرنا مأتاه
وسعت إليه عناية تلقاه

عام مضى وجهودنا ممدودة
تسعى لنيل دعائه ورضاه

ضيف أطل وهيأت راحاته
من قبل مقدمه فيا بشراه

حجاج بيت اللّه هذا دربنا
منذ القديم على هدى.. سرناه

نولي الحجيج عناية وكرامة
ونذلل الصعب الذي يخشاه

من كان ذا دين وعقل عاقل
حفظ الجميل ولم يكن ينساه

إذ كيف ينسى حجة مبرورة
من جاء محتسباً إلى مولاه

فليذكر الإحسان والبر الذي
صحب الحجيج ومن له أسداه

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ٢١ بيتاً وقد قرأتها في العدد ١٢٠٧٠ من «جريدة عكاظ» الصادر يوم السبت ١٠ ذي الحجة عام ١٤١٦هـ.



عندما جُرِب التهامي.. قال:!!

يصاب الإنسان ببعض الأمراض العادية. ويطول أمد مصارعته لها فترة من الزمن. فلا يضجر كل الضجر منها حتى وإن ساءت صحته ووهنت قواه بسببها.. لكنه إذا ما أصيب ببعض أنواع الأمراض المعدية التي يُفْرَدُ بسببها ويعزل ويُتَجنَبُ ويُبْتَعَدُ عنه فلا يُجَالَسُ ولا يعاين. ولا يؤاكل. وإن لم يكن ذا خطورة على حياته. وإنما عزله بسبب ذلك الداء هو الذي يوجد في نفسه شيئاً من الإحباط الذي يصيب علاقته بالآخرين، أو علاقة الآخرين به.. وإذا ما أصاب ذلك الداء أديباً أو شاعراً أو حكيماً فإنه يخلف أدباً. ويترك أثراً ربما يكون فكاهياً تتجلى فيه صنعة المصاب بذلك الداء ويصدق في تصوير الأثر النفسي الذي تفاعل مع ألم الجرب وهيئته المزرية.. وتظهر واقعية الأزمة النفسية التي صارعها المجروب.

وهذه الصورة قد نقلها لنا الشاعر التهامي واسمه: أبو الحسن علي بن محمد التهامي المولود بمكة المكرمة عام ٣٦٠هـ والمتوفى في القاهرة عام ٤١٦هـ في قصيدة صنعها أثناء إصابته بداء الجرب. وأجاب بها صديقاً له يدعى بدر اليماني كان قد عاتبه على انقطاعه عنه وهو لا يعلم بأن سبب انقطاعه هو إصابته بداء الجرب. من تلك القصيدة قوله:

مولاي مهلاً فليس يجمل أن
أُعْتَبَ في غير موضع العتب

بي جربٌ فاقع مضاربُه
أمضى من المغمدات في النُقْب

ومنها قوله:

حرمت من لبسة الثياب فقد
عُرِّيت إلّا من لؤلؤ رطب

لقد صور التهامي فقاعات طفح الجرب ووصف بياضه باللؤلؤ الرطب.. ثم انتقل إلى وصف تعامله مع الجرب ذلك التعامل المتمثل في الحك. وذلك بقوله:

كأنما أغلى إذا سرحت
في جسدي الخيول في الحرب

فتارة في اليمين تعكسه
وتارة في الشمال والقلب

أما ليله وهو يصارع الجرب فقد وصفه بقوله في نفس القصيدة:

حتى إذا الليل جن كنت به
ملقى على الظهر أو على الجنب

كأن جسمي غيمة ويدي
تحول فيه بالحك والنهب

فما على ما شكوتُ محتمل
للعتب فاصفح ولتعف عن ذبي



ربما أخذ اليأس طريقين إلى النفس!!

واليأس الذي يقطع الهمم بملئ النفس بالقناعة بعدم الوصول إلى الهدف الذي تطمع النفس في الوصول إليه. أو بلوغ الغاية التي لا يحول دون بلوغها إلّا شيء بسيط من الحركة. للناس في حاله نظرات وتحليلات.

وهذا اليأس أرى أنه يتسلل إلى النفس من طريقين الأول: يأتي ويستقر داخل النفس دونما مقاومة حركية أو فكرية من صاحبها. بل إنه يجد الطريق إليها ممهداً بشيء اسمه - الكسل - الذي يمتزج بالخمول فيشكل امتزاجه شيئاً اسمه سلطان الراحة.

وسلطان الراحة هذا لا نراه إلّا متوجاً باليأس الذي ينزع بصاحبه عما يجدُّ الناس في طلب الحصول عليه نزعاً ينأى به عن سلوك الطريق الذي يمضي به غيره إلى حيث ساحة الأمل والاشتراك في التدافع على نيل كل ما يطمع الناس في الوصول أو الحصول عليه.

وصاحب هذا اللون من اليأس لا يفتر بل لا ينقطع عنه اللوم. ولا يقبل له عذر على اتكائه على أريكة الكسل.

أما الطريق الثاني: فإنه يصل إلى النفس بعدما يخوض تجارباً قاسية. ويمارس أنواع الكفاح في سبيل إثخان صاحبه وإدماء كل جارحه فيه كانت تحمله على الانطلاق نحو تحقيق حياة تئد الفقر وتلهب الحماس على طلب الرزق. وتثبت في الجناح قوادماً تنهض به نحو معالي الأمور ودرجات الرقي وعزة النفس. فيعود منكسر البال مَيِّت الهمة لا يعانقه إلّا أمل خاوي يذكره بفشله. ويعرض أمامه صورة خسرانه فيسلم لليأس مقاليد أمره.

ولقد رسم الشاعر حبيب عوض الفيومي ما يشبه هذه الحالة اليأسية في أبيات جاء فيها قوله:

مشيت على قلة في سني
قليل الطماح وئيد الخطى

كأن على عاتقي محملاً
من الصخر يهصر منيّ المطا[1]

إذا ما بصرت بمستملح
وجدتُ الأسى فوق عيني غطا

فمن لي بقوة هذا الزما
ن فاسطو عليه كما قد سطا

فيبصرني مثل ليث العرين
وأبصره مثل خشف عطا

ويا عجباً لي أمامي الطريق
ويمنعني حرج أن أطا[2]

وكم كان في الأوج لي مرتقى
وفي صهوة المجد لي ممتطى

وما أنا ذا لست أغشى الحياة
إلّا احتلاساً كورد القطا



(١) المطا: الظهر.

(٢) أراد بالحرج هنا: النظام أو القانون.

التصريح بعدم بدعية هبوط الشمس والثريا..
من المبالغة في المديح!!

وعلى الرغم من أن بعض الشعراء يضرب في المبالغة عمقاً يجتاز فيه الحد المعقول ويأخذ مسلكاً رمزياً بعيداً كل البعد عن صورة الحقيقة. وحالة الواقع. فإن الشعر بما فيه من صور المبالغة يستملح وتستعذب قراءته. بل يستطاب حفظه.

فكم يحفظ الناس الذين لهم ذوق شعري من أبيات عديدة تضرب في عمق المبالغة. بل إن منها ما هو خارج عن نطاق المألوف من المبالغة الحقيقية التي تلامس الواقع وتدغدغ الخيال في أجواء الحكمة وميدان الرؤية.

والصورة التي سأعرضها في هذا الموضوع هي تلك التي يضرب تعبيرها اللفظي فيما يشبه المستحيل. وذلك مثل جعلهم النجوم تهبط إجلالاً لممدوحيهم وتقديراً لما هم عليه من أدب وعلم. بل ربما كان احتراماً لما تفرضه هيبتهم على الناس.

يقول الشاعر السيد سليمان بن نور الله بن عبد اللطيف الحموي ثم الدمشقي المعروف بالسواري المتوفى سنة ١١٢٧هـ ممتدحاً علي بن العماد بقصيدة منها قوله:

لا بـدع إن هـوت الـثـريـا لـلـثّـرى

في مجلس المولى الأجل الألمعي

صدر الأكارم من أمر بفضله
وبسبقه للمجد كل سميدع[1]

أعني علياً ذا المكارم والتقى
نجل العماد الأحوزيّ اللوذعي[2]

هو لو رأته الشمس وهي بأفقها
هبطت إليه من المحل الأرفع

لا زال محفوظ الحواس وشمله
متجمع بالسعد أيّ تجمع

ومن هذا النص الشعري نتبين أن الشاعر لم يجعل هبوط الثريا بدعة إن هي فعلت ذلك وإنما إجلالاً لعلي. بل زاد على ذلك بأكبر منها وهي الشمس.

وبنفس المعنى والأسلوب والمبالغة يقول الشاعر أسعد بن أحمد بن عبد الكريم العبادي الدمشقي المتوفى سنة ١١٢٥هـ ممتدحاً جمعهم:

لا تحسبوا سقط الثريا خطأً
منها على تلك الوجوه الطّلّع

بل إنها من فرجة لما رأت
جمعاً لهم يحكي لها في الأربع

نثرت كواكبها عليهم في الدجى
من قاب قوسين المحل الأفع



(١) السميدع: السيد الكريم. الشجاع السخي.
(٢) الأحوزي: الحاذق.

وصف الطبيعة بلغة الهوى!!

يحزم الشاعر في بعض الأحيان حقائبه. ويمتطي وسيلة تنقله. فيبدأ رحلة زادها الخيال. وحداؤها أنغام التجليات الفكرية التي تنسجم مع التطلعات المواكبة للآمال التي من أجلها شد الرحال. فيضرب في عمق الطريق باحثاً عن مكان تناغي طبيعته أنغام خياله. وتفجر جغرافيته قريحة الشعر عنده. فيبني من وصف أشجاره وروائح أزهاره قصيدة تمتاز بالبساطة. وتعبق بموسيقى النغم الشعري الذي يحرك أوتاره تمايل الأغصان. وتنظم إيقاعاته قطرات الطل المتساقط من غضيض الورق وناعم البراعم.

والشعراء الذين هيجت قرائحهم المناظر الخلابة التي تزدان بها الرياض والروابي في فصل الربيع. وشغفوا بتغريد الطيور على ذوائب الأشجار التي يميل بها النسيم أنّى هب ليسوا بقلة. بل هم في ذلك كثر. وأشعارهم تفوح بشذا عطر الطبيعة. وتشغف الآذان بجميل تعبيرها. وصادق وصفها.

وإذا كان لا بد من دليل على جميل وقفاتهم الشعرية فإن أحدث ما قرأت في هذا المعنى قصيدة للشاعر اللواء الركن محمد الزويد النفيعي. أطلق فيها عنان خياله. فارتكزت رؤيته الشعرية على وادٍ مشجر ومعشب تسرح العين في جنباته المكتظة بالأشجار والأزهار التي مال في التعبير في وصفها إلى القول بأنها تسقى بماء الهوى فطعّم بذلك الوصف وجه الطبيعة بلغة الهوى. وخواطر العشق. من تلك القصيدة قوله:

في رحلة البحث عن أرض لمرباعي
نـزلـتُ وادٍ بـه جـنـسـي ومـربـاعـي

عـراره فـاح فـي أرجـائـه عـبـقـاً
وعـطـره جـال فـي جـوٍ وفـي قـاع

أشجاره من ينابيع الهوى سقيت
لـهـا الـغـرام غـذاء والـجـوى راعـي

أزهـاره الـشـيـح والـدفـلـى وزنـبـقـه
لـه عـبـيـر يـداوي قـلـب مـلـتـاع

بـه الـبـنـفـسـج مـسـرور وزنـبـقـه
يزهو على الفل لا يجني لمبتاع

والـيـاسـمـيـن وأزهـار بـه نـبـتـت
تـداعـب الـطـيـر فـي شـدو وإيـقـاع

وجدت فـيـه أنـاسـاً لا مـثـيـل لـهـم
تـصـبـو إلـيـهـم عـلـى شـوق وإسـراع

الليل يسكب في أجفانهم سهراً
وجـاورزوه بـأنـغـام وأسـجـاع

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ثلاثة وعشرين بيتاً. وقد نشرتها جريدة «الرياض» في العدد ١٠٠٥٧ الصادر يوم السبت ١٥ شعبان عام ١٤١٦هـ.



رمضان شهر العبادات.. لا شهر المأكولات!!

والسؤال الذي يتكرر طرحه عند حلول كل رمضان من كل عام.. هو لماذا يتهافت الناس على شراء أنواع المأكولات تهافتاً جنونياً عندما يحل بهم شهر رمضان؟ فما لهؤلاء الناس وهذه الشراهة؟ هل لهذه المباهاة بتنويع موائد الإفطار من حد عقلاني؟ يكبح انفتاح الشهية.. أم أن الناس يظنون أن رمضان جاء وكأنه قافلة ستحملهم إلى مكان بعيد خلال طريق خال فيعدون له الزاد والشراب؟. أم أنهم لا يأكلون من أطايب الطعام إلّا في رمضان؟ أم ماذا؟. أهم يحبون أن يدخلوا بذلك في زمرة من لا يحبهم الله بسبب الإسراف في الأكل والشراب بحكم نص الآية الكريمة: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [الأعراف: ٣١] وما عليهم لو اكتفوا ببعض ما يشترون. واشتروا ببعض قيمة البعض الآخر كتباً دينية يراوحون بقراءتها قراءة القرآن الكريم في شهر القرآن. شهر رمضان!!

والحقيقة أن ظاهرة التباهي والتفاخر بشراء أنواع المأكولات. ظاهرة لا تبشر بالخير. وإنما هي عامل من عوامل البطنة والسمنة.. ثم إن رمضان شهر عبادات وطاعات وترجي لنفحات الله وكراماته لا شهر مأكولات وتنافس على تنويع الموائد بمختلف المأكولات والمشروبات.

بقي أن أقول: إن رمضان شهر تضاعف فيه الحسنات. فلماذا لا نتخذه موسماً نتوجه فيه إلى الله بطلب العفو عما سلف وفات من ارتكاب المآثم والسيئات. فلا يفوتنا منه أوله الذي هو رحمة. وأن

نحرص على وسطه الذي هو مغفرة، وأن نلح بخشوع وتذلل في آخره الذي فيه العتق من النار. لنفوز في يوم العيد بما يوزع من جوائز لصائمي نهاره وقائمي ليله.

ولقد لفت نظر الشاعر محمد سعد المشعان الإقبال الجنوني على شراء المأكولات عند حلول رمضان. فساهم بإنشاء قصيدة ساخرة من ذلك الفعل. وحيث أنه من طبع الشاعر أن لا يذكر اسماً معيناً رآه في مثل تلك المواقف. فإنه يضع نفسه مكان من يريد انتقاده. وكأنما هو يرمز إلى المثل القائل: «إيّاك أعني واسمعي يا جارة» من تلك القصيدة قوله:

صنتُ نفسي عن فتنة «السنبوسة»
ورضيتُ العشاء محشي كوسه

إن شهر الصيام شهر عظيم
فيه تسمو النفوس وهي حبيسه

حدثتني نفسي ويا ويح نفسي
جعلتني لمشتهاها فريسه

حدثتني عن الشّويّ على الفحـ
ـم وعن جفنة و«المكبوسه»

وعن المطعم الذي أحببتُ «كرعا
نه» وأحببتُ «روسه»

نظرياً قد صنتُ نفسي ولكن
في مجال التطبيق نفسي «شمُوسه»

في نهار الصيام أدعو إلى السلـ
ـم ومضغ المساء أُحمي وطيسه

حملوني إلى الطبيب صريعاً

قال كفوا عن الطعام ضروسه

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ١٥ بيتاً وقد نشرتها جريدة الرياض في عددها ١٠٠٨ الإثنين ٩ رمضان عام ١٤١٦هـ.



ومن الناس من يحج لغير عبادة الله!!

من الناس من يحج حجاً صورياً يشارك المسلمين في أفعالهم وحركاتهم البدنية تقية لا عبادة خالصة لله وحده. فتراه يبث من خلال مشاركته تلك مبادئ هدامة واتجاهات مضللة. وأفكار مسمومة يصطاد بها فئات من الحجاج تنخدع بأساليبه وببراعة صياغته للدعاية المناهضة للسنة المحمدية وأنصارها.. وتصدق أحاديثه الأفكية جماعات ينقصها التفقه في الدين الإسلامي الحنيف. فيخرجها من معتقدها الإسلامي ويلقي بها في مهاوي البدع وأوحاله التي تتمثل في رفع الشعارات. والمناداة بالحريات التي لا يقر مبادئها الإسلام.. وتعظيم الأشخاص عن طريق رفع صورهم الفوتوغرافية والهتاف بحياتهم وتمجيدهم. والحديث عن مبادئهم السياسية البعيدة كل البعد عن حياة المسلمين وإصلاح شأنهم.

وهذا المسلك بواقعه ومنهجه السياسي ينافي قواعد الحج ويفسده. إذ أن الحج ليس سوقاً لنشر الأفكار. ولا تدخل في أعماله البدنية والروحية أية حركة غير القيام بأركانه وواجباته التي نص عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة. وممارسة أعمالهم المشروعة ذات المنافع المنسجمة مع روح الإسلام وتعاليمه.

والحقيقة أن مثل هذه الشعارات والتوجهات المخالفة لمبادئ الحج المبرور لا تسهم في إيجاد طمأنينة الحجاج بقدر ما هي مصدر تشويه وبلبلة أفكار تعكر صفو الطائفين والآمنين والآمين البيت الحرام والمشاعر المقدسة بوجه عام.

ولكون حكومة المملكة العربية السعودية هي القائمة على شؤون

الحج بحكم أن المشاعر المقدسة واقعة بحمد الله في أراضيها فإن دورها في تنظيم الحج وتسييره تسييراً صحيحاً دور يحتم عليها مسؤولية أمن وأمان الحجيج. ولابتعادهم عن كل ما يفسد حجهم. ولذا فإن الحكومة تضرب بيد من حديد على كل من يحاول إفساد الحج أو التشويه على الحجاج.

قال الشاعر الدكتور عبد الخالق مساعد الزهراني في إحدى مقاطع قصيدة له عنوانها «حجاج بيت الله.. هذا دربنا»:

حجاج بيت اللّه إنا قد نرى
سوءاً يلوح وفاجراً يهواه

من كان عصبة صبغ الهوى أفكارهم
فنسوا القداسة للمكان وتاهوا

من كان يرضى أن يشوه أمننا
في مجمع للّه ما أبهاه

في مجمع حفت به من فوق سب
ع رحمة وهداية تغشاه

وبدت على أهل الضلال غشاوة
وسم الإله بها الوجوه فشاهوا

إنا لنبصر من بعيد مكرهم
ودخان غلهم الخبيث نراه

حجاج بيت اللّه أنتم ههنا
في بيت بوركت أرجاه

فخذوا السكينة والوقار شعاركم
واستقبلوا نفحاته وشذاه

المقامة الرملية.. في الحج والحجاج

من نماذج الكتابات التي يهتم أصحابها بتحذير الحجاج عن الإنصراف إلى الأعمال التي ليست من جنس أعمال الحج وأفعاله.. هذا الجانب من المقامة «الرملية» التي حررها الحريري واسمه القاسم بن علي العراقي المتوفى سنة ٥١٦هـ صاحب المقامات المشهورة.. والتي منها قوله: «يا معشر الحجاج الناسلين الفجاج. أتعقلون ما توجهون. وإلى من تتجهون؟ أم تدرون على من تقدمُون وعلام تقدمون؟ أتخالون أن الحج هو اختيار الرواحل. وقطع المراحل. واتخاذ المحامل. وإيقار الزوامل؟ أم تظنون أن النسك هو نضو الأردان. وإنضاء الأبدان. ومفارقة الولدان. والتنائي عن البلدان؟ كلا والله بل هو اجتناب الخطية قبل اجتلاب المطية. وإخلاص النية. في قصد تلك البنية. وإمحاض الطاعة عند وجدان الاستطاعة. وإصلاح المعاملات أمام إعمال اليعملات. فهو الذي شرع المناسك للناسك. وأرشد السالك في الليل الحالك. ما يُنقي الاغتسال بالذنوب من الانغماس في الذنوب. ولا تعدل تعرية الأجسام بتعبية الإجرام. ولا ينفع الاضطباع بالإزار مع الاضطلاع بالأوزار[1]، ولا يجدي التقرب بالحلق مع التقلب في ظلم الخلق. ولا يرحض التنسك[2] في التقصير درن التمسك بالتقصير. ولا يسعد بعرفة غير أهل المعرفة. ولا يزكو بالخيف من يرغب في الحيف. ولا يشهد المقام إلّا من استقام. ولا يحظى بقبول الحجة من زاغ عن

(١) الاضطباع: هو أن تدخل الثوب الذي هو الإزار تحت يدك اليمنى فتلقيه على منكبك الأيسر وتبدي الأيمن.

(٢) يرحض: يغسل.

المحجة. فرحم الله امرأً صفا قبل مسعاه إلى الصفا. وورد شريعة الرضى قبل شروعه على الأضا[١]. ونزع عن تلبيسه قبل نزع ملبوسه. وفاض بمعروفه. قبل الإفاضة من تعريفه».

ثم ساق أبياتاً منها قوله:

ما الحج سيرك تأويباً وإدلاجاً
ولا اعتيامُك أجمالاً وأحداجا

الحج أن تقصد البيت الحرام على
تجريدك الحج لا تقضى به حاجا

وتمتطي كاهل الإنصاف متخذاً
ردع الهوى هادياً والحق منهاجا

وأن تؤاسى ما أوتيت مقدرة
مَنْ مَدّ كفا إلى جدواك محتاجا

فهذه إن حوتها حجة كملت
وإن حلا الحج منها كان إخداجاً[٢]

حسب المرائين غبناً أنهم غرسوا
وما جنوا ولقوا كداً وإزعاجا

وأنهم حرموا أجراً ومحمدة
وألحموا عرضهم من عاب أو هاجى

أُخي فابغ بما تبديه من قرب
وجه المهيمن ولّاجاً وخرّاجا

---

(١) الأضا: جمع أضاة وهو الغدير.

(٢) أخداجاً: نقصاناً.

لا جدال في الحج!!

ومن الناس من يتخذ الحج وسيلة ليتشفى بها مما يكنه من حقد ضد المسلمين الذين يأمون البيت الحرام والمشاعر المقدسة بقصد أداء الفريضة.. فتراه يرفع صوته بالشعارات المعادية للإسلام والمسلمين ناسياً أو متناسياً إن لم يكن مكذباً بما جاء في قوله تعالى في سورة البقرة آية ١٩٧: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾.

وغير آبه بقول رسول الله ﷺ: «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

والالتفاتة الصادقة في التحذير من تلك الأعمال التي يمارسها أولئك الذين يحاولون التشويه على الحجاج المسلمين. قائمة ومستمرة. والحديث عن الأخذ بآداب الحج متواصل والحمد لله.. فعلماؤنا يعطون مناسبة الحج في كل عام حقها بجل اهتمامهم المتمثل في نشر الوعي بين صفوف الحجاج سواء كان ذلك بعقد الندوات وإلقاء الدروس من خلال الإذاعة أو المرئاة. أو المساهمة في نشر المقالات في الصحف والمجلات. أو بإصدار الكتيبات التي تمثل موضوعاتها خلاصة تعاليم أركان الحج وواجباته. ومستحباته وآدابه.

ولا يألوا الكثير منهم جهده في ذلك بل يصحب الحجاج أثناء تنقلهم في المشاعر المقدسة يرشد ويفتى من يسأل عن أي أمر من أمور الحج.

والوقوف في وجه أولئك الغوغائيين الذين يحاولون صرف الناس يرفع الشعارات.. متعدد الجوانب والأساليب.

ولقد أخذ الشعر دوره في كشف النقاب عن ذلك. فهذا مثلاً الشاعر قدور الورطاسى من الرباط يقول في قصيدة له عنوانها «الأطياف التائهة»:

وفي الحرمين بغية قدسية
تنسي القلوب الغلف شكلاً ومنبعا

وتنمي اليقين الحق في كل منسك
فنسموا وإن كنا سلائل رضعا

فما للهوى في القوم يصرم فتنة
فيبدون بين الخلق أدنى وأبشعا

يلوحون في المسوح «رهبان مدين»
فيلفون في الأغرار قلباً ومسمعا

ومنها قوله:

ألم يعلموا لمبدع الكون قوة
لنا في جميع الكون أرعى وأبرعا

فهيهات أن يبقى البغاة بسعيهم
ولله نور ما أجل وأسطعا

هنيئاً مريئاً للحجيج بموسم
أبى الله إلّا أن يكون ممنعا

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ عشرين بيتاً وقد نشرتها مجلة «المنهل» في عددها ٥٣١ ذي الحجة سنة ١٤١٦هـ.

الندامة إذا كان الموت هو موقظ الإنسان من منامه

تجر عجلة الزمان فيما تجره من سائر المخلوقات.. بني الإنسان الذين يكون بعضهم في مراحل جريانها بين ساه تتفاعل أحلامه وخيالاته مع نفحات التسويف وإيقاعات التأجيل التي تمهد لنفسه طريق السهو والتراخي عن فعل الواجبات الملزم بممارستها. فلا يتبين واقع أمره إلّا في اللحظات الأخيرة من حياته.

وبين غارق مع غفلة عما يصلح أمر آخرته. ويحقق له السعادة في منقلبه.

ويمضي الإنسان مع عجلة الزمان مطلقاً العنان بكل حرية لهاجس الغفلة. فلا يتسرب إلى عقله تفكر في مصير ولا تذكر لمآل. فلا تحين منه التفاته لإختيار الزاد الذي يجب أن يتزود به لموقف. هو واقف به لا محالة. مهما طال سفره وتباعدت رحلته. وامتدت به حياته.

أما البعض الآخر. فربما يصح تقسيمه إلى قسمين: قسم يسهو ويذكر. ويغفل وينتبه. وهكذا ديدنه طوال رحلته كالذي يتناول جرعات من الدواء كلما انتهى مفعولها عاوده الداء. وسعادته وشقاوته مرهونان بما يكون عليه في آخر لحظات حياته كما جاء في الحديث الشريف: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلّا ذراعاً فيسبق عليه الكتاب فيكون في الجنة. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها إلّا ذراعاً فيسبق عليه الكتاب فيكون من أهل النار» أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

والقسم الثاني هو ذلك الذي يكون على مبدأ ثابت من حيث صدق العقيدة وثبات الإيمان.. لا يسهو ولا يلهو ولا يغفل عما فيه

صلاح أمر دينه ودنياه. والذين أعطوا الغرور والغفلة والسهو واللهو انطلاقة لا حدود لها في حياتهم. هم النادمون حينما يكون الموت هو الموقظ لهم.. وفيما يدور حول هذا الموضوع من بعض الأشعار قول الشاعر محمد علي بن محمد علان بن إبراهيم بن محمد بن علان البكري المولود عام ٩٩٦هـ والمتوفى سنة ١٠٥٧هـ:

إذا أمسيت فابتدرا الصباحا
ولا تمهله تنتظر الصياحا

وتب مما جنيت فكم أناس
قضوا نحباً وقد ناموا صحاحا

ويقول الشهاب في هذا المعنى:

ألا أيها المغرور في نوم غفلة
تيقظ فإن الدهر للناس ناصح

فكم نائم في أول الليل غافل
أتاه الردى في نومه وهو صابح

فشق عليه الليل حبيب صياحه
وقامت عليه للطيور نوائح

وأنشد له بعضهم هذه الأبيات:

الموت بحر موجه طافح
يغرق فيه الماهر السابح

ويحك يا نفس قفي واسمعي
مقالة قد قالها ناصح

ما ينفع الإنسان في قبره
إلّا التقى والعمل الصالح

سوزان تمتدح بحروف اسمها!!

وامتداح سوزان بحروف اسمها لا يعني أن هذا المديح عام وشامل لكل ـ السوزانات ـ بل إن منهن منْ يستحق الهجاء والذم وأن في مدحهن ما يسخط أهل الفكر والأدب من أبناء مجتمعهن.

وسوزان التي امتدحت بحروف اسمها في عصرنا هذا هي سوزان حرم الرئيس محمد حسني مبارك رئيس جمهورية مصر العربية. وهو الرئيس الثالث. أو هو ثالث الثلاثة جمال عبد الناصر، وأنور السادات. الذين تولوا الرئاسة بعد الثورة التي أطاحت بالملك فاروق.

أما سوزان التي كان من نصيبها هذا الموضوع. فقد حظيت بمحبة شريحة كبيرة من الشعب المصري. حيث كان لها اهتمام بشؤون الأطفال وما يتعلق بحياتهم التربوية والتعليمية حيث كان لها يد في إنشاء مكتبة للطفل بمصر. ولها أذن مصغية لأقوال الأدباء والشعراء ومساهمة في رفع قيمة الأدب.

وإزاء اهتمامها بذلك. ولكونها ذات كلمة مسموعة بحكم مكانتها كزوجة لرئيس الجمهورية فقد كانت محط أنظار بعض الأدباء والكتاب والشعراء في مصر وخارج مصر ولهذا فهي جديرة بالمديح الصادق والبعيد عن التزلف. أو المصانعة أما كيف تهيأت لي أسباب كتابة هذا الموضوع فمرد هذا إلى قراءتي قصيدة للشاعرة سهير إبراهيم عليوه أهدتها إلى السيدة سوزان مبارك. وجعلت حروف اسمها عبارة عن مفاتيح لامتداحها والإشادة بأعمالها الإنسانية. وقد نشرها ملحق الجمعة

في جريدة «الأهرام» العدد ٣٩٩٩٥ الصادر يوم الجمعة ٢٠ محرم عام ١٤١٧هـ وأقتطف من تلك القصيدة قولها:

بحرف السين سجلت
حروف النور ألوانا

بحرف الواو واجهت
غريباً زار دنيانا

بواو الود لملمت
شريداً عاش حيرانا

وأشفقت ووصيت
بعام الطفل أوطانا

بحرف الزاي زينت
بلون الفن فنانا

بألف الحب ألفت
فكل الناس إخوانا

بحرف النون نبهت
لدور المرأة الآنا

هذا ما اقتطفت كما أسلفت أما ختامها فقولها:

بنبض القلب أنظمه
فجاء النظم «سوزانا»



قراءة في نتائج معركة فكاهية!!

ويعود تاريخ هذه المعركة الفريدة من نوعها إلى القرن الثاني عشر الهجري الذي تم فيه لقاء بين فئات متضامنة. وبين الشاعر السيد الشريف جعفر بن محمد بن إبراهيم البيتي باعلوي المدني المولود عام ١١١٠هـ والمتوفى سنة ١١٨٢هـ. . وقد كانت الحرب سجالاً بينه وبين أربع فئات متضامنة ضده هي جماعة البق، والفئران، والقمّل، والبراغيث. .

أما ميدان الحرب فقد كان بمدينة ينبع في القرن الثاني عشر من الهجرة كما أسلفت.

وهذا يعني أنها ـ والمعنى مدينة ينبع ـ لم تكن على حالتها في ذلك الزمن كحالتها الراهنة التي واكبت بها شقيقاتها مدن المملكة العربية السعودية.

وأما مؤرخ هذه المعركة، ومصور أحادثها، ومترجم وقائعها. فهو الشاعر نفسه وذلك بتسجيلها في قصيدة طويلة تبلغ نحواً من أربعة وعشرين بيتاً منها قوله:

وأن البقَّ من كل الجهات فراعه
فلا تنكروا تحكيكه والتياعَهُ

وهذا هو مطلع القصيدة الذي أثبتَ فيه ما مس جلده من أذى جعله يحتك. ولكن في أي مكان واجه البقَّ؟ الإجابة في قوله:

نزلنا بِمَرْسى «ينبع البحر» مرة
على غير رأي ما علمنا طباعه

نقارع من جُند البعوض كتائباً
وفرسان ناموس عُدِمْنا قِراعه

وإلى جانب البعوض، فئران، وقمل، وبراغيث تأخذ دورها في الخطة المرسومة لمهاجمته:

وجُنداً من الفيران في البيت كُمّناً
متى وجدوا خرقاً أحبوا اتساعه

وسرية قمّل تنبري إثر سريّة
خفافاً إلى مصّ الدماء سراعه

ينازعها البرغوث لحماً فليته
رحىً يتلاقى واكتفينا انتزاعه

ولقد كادت كفة هذه الحرب الضروس تميل لصالح تلك الفئات المتعطشة إلى دم الشاعر البيتي الذي أخذ يكيل الشتائم لها:

إذا شبع الملعون مجّ دماً على
ثيابي فلا أحيا الإله شباعه

فما وشّنا بالدم إلّا لسانه
ولم ترعيني مكره وخداعه

والحقيقة أنها قصيدة حافلة بعرض الصور المقلقة التي تشكل في مجموعها أذى لا ينكر صحته كل من حرمه البق لذة النوم، ولليلة واحدة.



اللام الغزلية!!

وبعض حروف الهجاء يكون لها نصيب من التشبيه بها في بعض أساليب الغزل.. وهذا ربما يعود إلى لطافة شكلها وجمال هيئتها.

وإذا ما أردنا التعرف على واحد من تلك الحروف الهجائية فليكن حرف اللام الذي اعتبره بعض شعراء الغزل شبه مفردة يستخدمها في بعض أشعاره الغزلية فعلى سبيل المثال. هناك قول الشاعر علي بن الحنائي بن أمر الله الحميري. وقيل: هو علي بن عبد الله الحنائي الحميري المولود عام ٩١٨هـ والمتوفى عام ٩٧٩هـ:

ولائم لام في حُبّي لذي غنج
لما رأى في حواشي خدّه لاما

فقلت ذي لام تعليل بوجنته
تُبين علّة من في حبّه هاما

وها قول ابن رشيق:

خط العذار له لاما بعارضه
من أجلها تستغيث الناسُ باللام

ويقول شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري المولود عام ٩٧٧هـ والمتوفى عام ١٠٦٩هـ:

وأقسمت لا بُدّ من وصله
وبالهجر والوصل يأتي القسم

ولام العذار على خدّه
لعمري مُوطئةٌ للقسم

أما الشاعر ابن الجابي فقد جعل من العذار الذي يشبه اللام أداة تجر إلى الهوىٰ وذلك بقوله:

في خده لام تجر إلى الهوى
فالقلب مجرور بتلك اللام

وقال بعضهم:

هويته عجمياً فوق وجنته
لاميّة عَوَّذتها أحرف القسم

في وصفه ألسن الأقلام قد نطقت
وطال شرحي في لامية العجم

ومما تقدم نرى كيف تلاعب الشعراء بحرف اللام، وجعلوا منه موضع إشارة غزلية تتفق مع شكله وهيئته. ووظفوه بموهبتهم الشعرية وذكائهم الحسي توظيفاً فرض الوقوف أمامه، والنظر إلى سحر التشبيه به.



جران العَود: لقب لعامر بن الحارث!!

والقارئ الذي له صلة بالتراث وتاريخ الأدب يجد فيها كماً هائلاً من الأعلام الذين غلبت شهرة ألقابهم على أسمائهم، فلا يكادون يعرفون إلّا بها حتى في كتب التراجم والمعاجم الأدبية. وقد تناولت تراجم عدد لا بأس به وبثثته في الجزأين الرابع، والسابع من هذا الكتاب.

والشاعر جران العَود واحد من أولئك الذين غلبت ألقابهم على أسمائهم. فاسمه الصحيح عامر وقيل: ـ المستورِد بكسر الراء ـ ابن الحارث بن كلفة من بني نمير.. أما سبب تلقيه بـ«جران العَود» فلأنه أخذ جران العَد ـ بفتح العين وهو البعير المسن ـ فوصل به سوطه ليضرب زوجته التي دب بينه وبينها خلاف انتهى بمجالدتها.. وقد لقب بذلك بعد أن قال:

عـمـدتُ لـعَـود فـإلـتـحـيـت جـرانَـهُ
ولـلـكَـيْـسُ أمضى في الأمور وأنجح

وقيل: بل لقب به بسبب قوله:

خــذا حــذراً يــا خــلــتــيَّ فــإنــنــي
رأيت جران العَود قد كان يصلح[1]

وهذان البيتان كلاهما في قصيدته التي تذمر فيها من زوجتيه، ومسهما بشيء من الهجاء حيث يقول فيها:

---

(١) أي يصلح لضربكما وهو يعني بذلك ضربته.

تُداورني في البيت حتى تكُبّني
وعين من نحو الهراوة تلمح[1]

وقد علمتني الوقذ ثم تجرني
إلى الماء مغشياً على أُرنح[2]

ولم أر كالموقوذ تُرجى حياته
إذا لم يرعه الماء ساعة ينضح

أقول لنفسي: أين كنتِ وقد أرى
رجالاً قياماً والنساء تُسبّح[3]

خذا نصف مالي واتركا لي نصفه
وبينا بذمّ فالتعزّبُ أروح

فيارب قد صانعت عاماً مجرماً
وخادعتُ حتى كادت العين تُمصَحُ[4]

وبعد هذا العرض الذي بين فيه سوء ما لقيه من معاملة ولمّا يمض على زواجه عام واحد يقرر المجازاة:

عمدتُ لعود فإلتحيت جرانه
وللكَيْسُ أمضى في الأمور وأنجحُ

وصَلْتُ به من خشيةٍ أن تذكّلا
يميني سريعاً كرَّها حين تمرحُ[5]

---

(١) الهراوة: العصا.

(٢) الوقذ الإشراف على الهلاك، أي أنها تضربه حتى تتركه وقيذاً.

(٣) يقول لنفسه بعدما غشى أين أنت حيث لا يدرى وإنما الذي رآه أن النساء تسبح أي: تتعجب بما صنعت به.

(٤) تمصح: أي يذهب ماؤها.

(٥) يقول إنه وصل السوط بجران البعير ليضرب ضربته به خشية أن تذكّلا: والتذكل أن يصير إلى حكمها.

القطامي لقب لعمير بن شييم!

واسم القطامي هو: عمري بن شُييم بن عمرو بن عباد بن بكر بن عامر بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن حبيب وهو ابن أخت الشاعر الأموي النصراني الأخطل. وقد قيل: أن القطامي توفي سنة ١٠١هـ ـ والقطامي في اللغة، الصقر ـ وقد أطلق لقب القطامي على ثلاثة هم: القطامي الضبعي من ضبيعة بن ربيعة بن نزار أحد ولد الساهري. وكان شاعراً وصاحب شراب..

والثاني: القطامي الكلبي واسمه الحصين وهو أبو الشرقي بن القطامي وصف بأنه شاعر.

والقطامي عمير بن شييم صاحب هذه الترجمة والذي قيل: إن سبب تلقيبه بالقطامي قوله هذا البيت:

يَحُطُّهنّ جانباً فجانبا

حط القطامي القطا القواربا

ويروى أن للقطامي عمير بن شييم لقباً ثانياً هو ـ صريع الغواني ـ وقد قيل: إنه هو أول من لقب به لقوله:

صريع غوان راقهن ورقنه

لدن شبّ حتى شاب سود الذوائب

والجدير ذكره هنا أن الذي اشتهر بهذا اللقب ـ صريع الغواني ـ هو: مسلم بن الوليد مولى الأنصار ثم مولى أمامة أسعد بن زرارة

الخزرجي. ومولد مسلم ومنشأه الكوفة وهو شاعر عباسي في شعره مفردات وبديع رائق. ومنهم من يعده السابق فيها.

أما القطامي: عمير بن شييم فقد كان لشعره حضور في معاجم اللغة العربية حيث أخذت منه شواهد على صحة لغة الألفاظ وبعض ما يبحثه أصحاب المعاجم. من معاني غريبة في اللغة.

ومن شعر القطامي عمير بن شُييم هذه الأبيات التي أقتطفها من أحدث قصائده البائية التي يضمها ديوانه وعدد أبياتها ٤٢ بيتاً:

ومـاريـح روض مـن أقـاح وحـنـوة
وذي نـفـل مـن قُـلّـة الـحَـزْنِ عـازبِ

سـقـتـه سـمـاء ذات ظِـلّ فـنـقّـمـت
نـطـافاً ولـمّـا يـأت سـيـل الـمـذانـب

بـأطـب مـن لـيـلـى إذا مـا تـمـايـلـتْ
من الليل وسنى جانباً بعد جانب

تـلاعـب أتـرابـاً مـن الـحـي مَـوْهـنـاً
قصار الخطا مسترخيات المناكب[1]

تـلاهَـيْـنَ واسْـتَـنْـعَـتْ بـهـن خـريـرةٌ
إلى ملعب ناءٍ من الحي ناضب[2]

وبـيـض حـسـان يَـتّـبـعـن إلـى الـصـبـا
رسـولاً كـمـيـعـاد الـعـتـاق الـنـجـائـب



(١) الوهن والموهن: نحو من نصف الليل.

(٢) استنعت: تقدمت وناضب: البعيد.

عَجْرَد لقب لحماد وليس اسماً في نسبه!!

لقد كانت هناك بعض العناية من المهتمين بتأليف السير والتراجم بسيرة حماد عجرد فقد ترجم له ابن خلكان في «وفيات الأعيان» وياقوت الحموي في «معجم الأدباء» وغيرها وخلاصة ترجمته من حيث نسبه ووفاته تتحقق أن اسمه: أبو عمرو، وقيل: أبو يحيى حماد بن عمر بن يونس بن كليب الكوفي. وقيل الواسطي المعروف بعجرد: وهو مولى بني سوأة بن عامر بن صعصعة، وهو مخضرم الدولتين الأموية والعباسية، ولم يشتهر اسمه كشاعر ماجن إلا في العباسية، وقيل: إنه نادم الوليد بن يزيد الأموي. أما قدومه بغداد فكان في أيام المهدي، وقيل: إن صناعته بري النبل، وقيل بل هي صناعة أبيه.

.. وقد ذكره ابن قتيبة في طبقات الشعراء فقال: كان في الكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون: حماد عجر، وحماد الراوية، وحماد بن الزبرقان النحوي. وكانوا يتعاشرون وكانوا كلٌ يرمون بالزندقة.. وأن محمد بن سليمان بن علي عامل البصرة قد قتل حماد عجرد عام ١٥٥هـ على زندقته، وقيل بل توفي عام ١٦١هـ وقيل: خرج من الأهواز يريد البصرة فمات في طريقه فدفن على تل هناك، وقيل: مات سنة ١٦٨هـ والمرجح أنه مات سنة ١٦١هـ.

أما سبب تلقيبه بـ«عجرد» بفتح العين وسكون الجيم وفتح الراء، فإنه يروى أن أعرابياً مر به وهو غلام يلعب مع الصبيان في يوم شديد البرد وهو عُريان. فقال له: لقد تعجردت يا غلام.. والمتعجرد: المتعري.. أما عن شاعريته فقد ذكر أنه شاعر مجيد في طبقة بشار بن

برد. قال ابن خلكان: وبينه وبين بشار أهاجٍ فاحشة وله في بشار كل معنى غريب، ولولا فحشها لذكرت شيئاً منها.

ومن شعر حماد عجرد قوله:

إنـــي أُحِــبُّــكِ فــاعــلــمــي
إنْ لــم تــكــونــي تــعــلــمــيــنــا

حُــبّــاً أقــلّ قــلــيــلِــهِ
كــجــمــيــع حُــبِّ الــعــالــمــيــنــا

وقال في أبي العباس الطوسي:

أرجـوك بَـعْـدَ أبـي الـعـبـاس إذ بـانـا
يـا أكـرم الـنـاس أعـراقـاً وعـيـدانـا

فـأنـت أكـرم مـن يـمـشـي عـلـى قـدم
وأنضر الناس عند المحل أغصانا

لـو مَـجّ عـود عـلـى قـوم عـصـارتـه
لـمجَّ عـودك فـيـنـا الـمسك والـبـانـا

ومما هجا به بشار قوله:

إذا جـئـتـه فـي الـحـي أغـلـق بـابـه
فـلـم تـلـقـه إلّا وأنـت كـمِـن

فـقـل لأبـي يـحـيـى تـبـلـغ الـعـلا
وفـي كـل مـعـروف عـلـيـك يـمـيـن

ويروى أن حريباً كان صديقاً لحماد عجرد. فلما مات حماد قال بشار بن برد معزياً حريباً بقصيدة منها:

بـكـى حُـريـبٌ فَـوَقِّـرهُ بـتـعـزيـة
مات ابن نهي وقد كانا شريكين

دهر شاعر

لا ينفك الدهر من ألسنة الناس، ولا يخلو كلامهم شبه اليومي من الإشارة إليه.. فهم بين شاكٍ من قسوته وراضٍ عن حالته، ومتضرر من ميله ومتنعم باعتداله، وبينهما لاعب على حبليه.

ووصف حالة الناس مع الدهر ربما استحالت الإحاطة بها على القلم استحالة تأبى التكامل والحصر، وتند عن الدقة.

وإذا كان الدهر نصيب من الحديث عن اختلاف أمزجة الناس وطباعهم وتقاليدهم وثقافاتهم، وتباين مشاربهم، وتنوع أذواقهم وأفكارهم وجميع ما يرتبط بحياتهم بصفة عامة. فإنه من الصعب بل من الصعب جداً الوقوف على جميع أقوال الناس في الدهر.

وإذا ما أردنا إلقاء نظرة عابرة على جانب الشكوى من الدهر في مختلف حالاته وهو أكثر ما يطالعنا به أهل الفكر والحكمة، وأصحاب الأقلام وذوو الدراية. فإن في الشعر ما يسد ويغني عن غيره في النظر إلى هذا الجانب من واقع الدهر الذي يتبادله البياض والسواد بالوصف من أهله.

ولقد رأيت أن أصحب الشاعر أبا الحسن علي بن محمد التهامي المولود عام ٣٦٠هـ والمتوفى عام ٤١٦هـ في الوقوف على جانب من واقع الدهر لنرى وجهة نظره في حال الدهر، والتي أفرغ جانباً كبيراً منها في قصيدته التي امتدح بها أبا الحسن علي بن طاهر الفرغاني. واستهلها بتلميحات غزلية، منها قوله:

وكذا الدهر يتبع اليسر عسراً

والهوى بالنوى ونُعمى وبُؤسا

هكذا صَرْفُهُ يُصَرِّفُ في الناس
بجرح يُداوى وآخر يُوسى

يُضْحك اليوم ذا وفي الغد يبكيـ
ـه فكلاً ترى ضحوكاً عبوسا

فإذا أعقب النحوس سعوداً
للفتى أتبع السعود نحوسا

وهو يعطي الخسيس حظاً نفيساً
ثم يعطي النفيس حظاً خسيسا

فترى الفاضل الأديب أخا الفهـ
ـم على عظم قدره منحوسا

دهرنا والد ونحن بنوه
فات في حبه لنا التنفيسا

قسم الحظ في بنيه بجور
فبذا أصبح المروس رئيسا



قولبة المعلقات وعيون الشعر في قوالب الفكاهة

يقف الهاجس الشعري عند بعض الشعراء وقفة يحصل له فيها التفاتة إلى الماضي البعيد ليعود منه بابتسامة يهمس بها في أذن معاصره همساً يعيد له فيها ملامح الماضي في نصوص حديثه تصاغ بعناية فائقة، وبتحكم في تحويل الفكر المكدود الذي رسم الصورة القديمة التي ترجمت الجد بكل جهد، ليصبح في صورة هزلية تستحوذ على صفة الطرافة والظرافة.

وما يصنعه بعض شعراء عصرنا هذا من أشعار يبحثون من خلالها عما يجلب الراحة النفسية لهم ولقراء أشعارهم بشيء من التظرف. قد يأتي موافقاً في كثير من المواقف لهوى النفس المكدودة التي تلتمس في كثير من الأحيان طريقاً يلوذ بها عن مواقف الملك، ويقلها من ميدان الجد المجهد إلى ساحة الضحك والمرح والفرح.

ونحن عندما نلتفت، أو نقف بالأصح على هذا اللون من الأدب. نلاحظ تمسك بعض شعراء الفكاهة بالشعر الأصيل، ونرى الكثير منهم يقولب بعض القصائد المشهورة كالمعلقات وغيرها من عيون الشعر في قوالب فكاهية بأسلوب يكاد يوصف بالمعارضة. وينطلقون بذاكرة الحافظ لتلك القصائد انطلاقة تذكره بسمتها لا بواقع نصوصها المفعمة بالجد، فيجد نفسه منسجماً مع إيقاعات تفاعيلها أما أنغام موسيقاها فضرب من الفكاهة التي ترقص الأسماع وتروح عن النفس بما يحمل على الابتسامة من ناحية ويعالج بعض الحالات الاجتماعية الممقوتة من ناحية أخرى.

قرأت في العدد ١٠٤٠١ من مجلة اليمامة الصادر يوم السبت ٢٥/١١/١٤١٦هـ قصيدة قوامها ١٦ بيتاً للشاعر زيد الضبعان جعل عنوانها «معلقة القرن العشرين» وقدم لها بقوله: حفظت بعض الأشعار أثناء دراستي وعندما أردت استعادتها وجدت أن الحابل اختلط بالنابل وأردت أن تشاركني ما وجدت. ثم ساق القصيدة، التي منها قوله:

أمن أم أوفى دمنة لم تغير
وكل محل للذهب منه تشتري

ديار لها وسط البراري كأنها
إشارات سير أحمر ثم أخضر(١)

ترى حولها آثار تفحيط «داتسون»
وآثار باصات وآثار «جاكوار»(٢)

وقفت بها من بعد عشرين ليلة
فلأياً عرفت الدار بعد تعثر

ومنها قوله:

تعلق قلبي طفلة عربية
أسطر بها الأشعار في كل دفتر

لها مقلة لو أنها نظرت بها
إلى ناقة صارت دجاجاً محمر

---

(١) يعني إشارات المرور الضوئية التي يعني الأحمر منها التوقف والأخضر.. السير.

(٢) الداتسون. والجاكوار نوعان من أنواع السيارات والباصات الحافلات التي تنقل عدد كبيراً من الركاب.

حجازية العينين نجدية الحشا

عراقية الأطراف تأكل جمبري[(١)]

لها أيطلا ظبي وساقا نعامة

وإرخاء سرحان وتقريب كنغر[(٢)]



(١) الجمبري: نوع من أنواع السمك.

(٢) الكنغر: حيوان بري يداه أقصر من رجليه.

حية عيسى يرض رأسها ابن أبي حصينة!!

والكثير من دواوين الشعر يحفل بشيء من المداعبات والنقائض التي تشكل في حد ذاتها نوعاً من أنواع الأدب الذي يشتاق له كثير من القراء.

والنقائض التي تتناوح أبياتها بين الشعراء لا يحكمها إطار معين، كأن لا تكون إلّا تهاجياً وتبادل شتائم بألفاظ مقذعة. بل هي تشمل كل ما يتبادله الشعراء من وجهات نظر لا تكون متفقة. فيأخذ كل منهم يعزز رأيه ويحجم موقفه مقابل التقليل من رأي الآخر تماماً كالذي ينقض كل منهم ما غزله الآخر بطريقة لا تخلو من العنف. وكل منهم يدعي أنه هو الصائب وأن الحق إلى جانبه.

وإذا ما ألقينا نظرة على مفهوم النقائض وجدنا أن السائد في معترك ساحة الأدب هو أن النقائض ما هي إلّا قصائد هجاء متبادلة بين شاعرين أو أكثر وأن أشهر ما في هذا الميدان هو ما تُبودل بين جرير والفرزدق والأخطل والراعي النمري. وواقع الحال يثبت ذلك لأن تلك النقائض تركت أدباً اشتمل على فنون الهجاء وأساليبه بصفة عامة..

والطريف مما كان متبادلاً بين الشعراء بصفة عامة ومما يوصف بالفتل والنقض هو ما جرى بين عيسىٰ الفزاري أحد شعراء الشام ورؤساء بني فزارة، وبين ابن أبي حصينة المتوفى سنة ٤٥٦. واسمه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الدين أحمد بن عبد الجبار السلمي المشهور بابن أبي حصينة حيث قال الفزاري من قصيدة بعث بها إلى

ابن أبي حصينة ووصفها بالحية التي متى ما نهشت ابن أبي حصينة لم تبق له لحماً ولا جلداً وذلك بقوله:

وحَـيّـتـكـم مـا لا تـضـرُّ وحـيـتـي
إذا نهشت لم تبق لحماً ولا جلدا

فأجابه ابن أبي حصينة جواباً أكد فيه بأنه قد أصاب يافوخ تلك الحية بحجر ورضّة فلم يعد مصدر تهديد له وذلك بقوله بعد أن استهل القصيدة بشيء من التغزل:

ألا أيـهـا الـغـادي عـلـى شـدنـيـة
يـقـدّ بـهـا أجواز عـرض الـفـلا قـدّا

ألـكْني إلى عيسى الفزاري رسالة
جعلتُ بها قولي على قوله ردا

وقل أيها الشيخ الذي ضل سعيه
فـأصـبـح لا مـالاً يـفـيـد ولا حـمـدا

تـهـددنـي فـيـمـا زعـمـت بـحـيـة
إذا نهشت لم تبق لحماً ولا جلدا

وحَيُّك ما يُخْشى فما بال حية
نحطُّ على يافوخها حجراً صلدا

ونتركها معضوضة الوجه برهة
من الدهر لا سمًّا بفيها ولا شهدا

ولو كنت ذالب لما كنت طالباً
لك الويلُ عفواً ثم أتبعته وعَدا



جمال حروف الرسالة!!

يذهب الكتاب والشعراء في صناعتهم مذاهب عدة، ويتفننون في أساليب الردود على ما يتلقونه من رسائل نثرية وشعرية أيما تفنن. فتراهم لا يكيلون الثناء كيلاً في تعبيرهم لمراسلهم وإنما يلقونه جزافاً. سواء كانوا يترجمون حقيقة يعرفونها، أو مجازاة بما يتلقونه في الرسائل التي ترد إليهم من أساليب تزخر بمديحهم وتمجيدهم، أو أنهم يبادرون بالامتداح مجاملة لا مكافأة.

وحيناً تراهم يركزون في ردودهم على مناقشة الرسائل التي يتلقونها من حيث قوة أسلوبها، وجمال خطها، وصحة لغتها. وما إلى ذلك مما يتعلق بالرسائل ذاتها دون الإشارة إلى أصحابها.

أما بعض الردود من المتلقين للرسائل فإنها تكون مشتلمة على الإشارة بالرسالة ذاتها ومقام مرسلها معاً.

وحيث أن هذه الأنواع من الردود يعتبرها بعض الشعراء أسلوباً مطروقاً وصناعة شائعة الذيوع فقد أخذوا يفتشون عن أساليب جديدة وغير مستهلكة لتكون ملفتة للنظر من ناحية، وموضع إعجاب لمتلقيها بصفة خاصة وللقارئ بصفة عامة من ناحية أخرى.

ومن تلك الأساليب الموقوفة على ذات الرسائل التي تُصْنع رداً، لا ابتداءً خاصة منها ما يكون بأسلوب شعري. مثل ما قاله الشاعر محمد جمال الدين بن حسين بن دراز المكي المتوفى عام ١٠١٢هـ في جملة أبيات جعلها جواباً لكتاب ورد إليه من أحد أصدقائه، فشبه ما جاء في الكتاب من الألفات بالغصون المائدة، ومن الهمزات بالحمائم

الصادحة على أغصان الأشجار، ومن الميمات بثغور الحسان، وذلك بقوله منها:

هذا كتابك أم درّ بمتّسق
أم الدراري التي لاحت على الأفق

وذا كلامك أم سحر به سَلَبَتْ
نهُى العقول فتتلو سورة الفلق

وبقوله منها أيضاً:

رسالة كفراديس الجنان بها
من كل مؤتلق يُلْهى ومُنْتَشَق

كأنما الألفات المائدات بها
غصون بان على أيك من الورق

تعلو منابرها الهمزات صادحة
كالورق ناحت على الأفنان من حُرَق

ميماتها كثغور يتبسمن بما
يُزرى على الدرّ إذ يُزهى على العنق

فطرسها كبياض الصبح من يقق
ونقسُها كسواد الليل في غسق[1]

يا ذا الرسالة قد أرسلت معجزة
ردّتْ بلاغتها الدعوى من الفرق



(١) النقس: المداد.

الكسائي لقب وليس اسماً لعلي بن حمزة!!

والكسائي هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان بن ولد بهمن بن فيروز مولى بني أسد النحوي، وقد غلب لقبه على اسمه فلا يكاد يعرف إلّا بلقبه ـ الكسائي ـ أما سبب تلقيبه بذلك فقد روى عن عبد الرحيم بن موسى أنه قال: قلت للكسائي: لم سُميت الكسائي؟ قال: لأني أحرمتُ في كساء. قال: وقيل: فيه قول آخر. وذكر إسناداً رفعه إلى محمد بن يحيى المروزي. قال سألت خلف بن هشام لم سُمي الكسائي كسائياً؟ فقال: دخل الكسائي الكوفة فجاء إلى مسجد السُّبَيْع وكان حمزة بن حبيب الزيات يقرئ فيه. فتقدم الكسائي مع أذان الفجر فجلس وهو ملتف بكساء من البرد كان أسود. فلما صلى حمزة قال: من تقدم في الوقت يقرأ؟ فقيل له: الكسائي أول من تقدم يعنون صاحب الكساء فرمقه القوم بأبصارهم.

والكسائي هو أحد الأئمة في القراءة والنحو واللغة، وأحد السبعة القراء المشهورين وهو من أهل الكوفة، وروى الحديث وصنف الكتب.

وكان الكسائي مؤدباً لابني الخليفة هارون الرشيد ـ الأمين والمأمون.

روى المزرباني أن الكسائي قال: أحضرني الرشيد سنة ١٨٢هـ في السنة الثانية من خلافته، فأخرج إليّ محمد الأمين وعبد الله المأمون كأنهما بدران. فقال: امتحنهما بشيء. فما سألتهما عن شيء إلا أحسنا الجواب فيه. فقال لي: كيف تراهما؟ فقلت:

أرى قمري أفق وفرعَيْ بشامة
يزينهما عرق كريم ومُحْتَِدُ

يَسُدّان آفاق السماء بهمة

يؤيدها خدم ورأي وسُؤددُ

سليلي أمير المؤمنين وحائزيْ

مواريث ما أبقى النبي محمد

حياة وخصب للوليِّ ورحمة

وحرب لأعداءٍ وسيف مهند

وقد مات الكسائي في سنة ١٨٩هـ وقيل: سنة ١٩٣هـ وكانت وفاته برنبويه كورة من كَوَر الري.. هو ومحمد بن الحسن الفقيه في وقت واحد. فقال هارون الرشيد: دفنت الفقه والنحو برنبويه. ورثاهما محمد الزيدي بقصيدة منها قوله:

تصرمت الدنيا فليس خلود

وما قد ترى من بهجة سيبيد

أسيتُ على قاضي القضاة محمدٍ

فأذريتُ دمعي والفؤاد عميد

وأوجعني موت الكسائي بعده

وكادت بي الأرض الفضاء تميد

هما عالمانا أوديا وتخرما

وما لهما في العالمين نديد



عدالة الشهود في دعوى الحب!!

والحب الذي يقابل بالصد أو بالهجران، ويذبح بالفراق والنأي. يتجسد في هيكل حزين يندب حظه ويستصرخ محبوبه بكل ما يملك من وسائل توضيحية ينقل من خلالها ما يعانيه من شوق مبرح.

والوسائل التي يترجم بها العشاق ما يخالج نفوسهم من واقع يعايشونه وحدهم كثيرة ومتعددة، منها ما يكتب ويقرأ ومنها ما يكتم ويُتَستر عليه. والبكاء وانهمار الدمع شاهد لا تجرح شهادته.

وإذا تجاوزنا النظر فيما يبعثون به من تأوهات عبر رسائلهم التي يزجونها على أجنحة الشوق ثم نظرنا إلى هيئاتهم لوجدنا أثر العشق ظاهراً ومقروءاً على ملامحهم

وإذا كان البعد المكاني يفصل بين المتعاشقين فإن وسيلة التعبير عن البكاء من أشد تلك الوسائل لوعة وتلهفاً، خاصة إذا أودعت كل فنية في قوالب شعرية.. فإن قارئها يحس بحرارة توهجها، ولا يشك أبداً في مصداقية قائلها.

والشعراء بين مطالب بتزكية دموعه واعتبارها شاهداً لا تجرح شهادته. وأنهم إنما أرخصوها لتترجم ما يتغلغل في وجدانهم مما يلاقونه من معاناة في سبيل عشقهم.. وبين من يتستر على عشقه فتفضحه دموعه التي لا يمكن الجرح في عدالتها كما أسلفت.

والشاعر ابن نفادة واحد من الشعراء الذين طرقوا هذا المعنى الخاص باعتبار الدمع شاهد لا جرح فيه بل ويزكيه تقرح الجفون:

وأكتم ما ألقى ودمعي يذيعه
وقد نطقت منه به ألسن فصح

وتقريح أجفاني من الدمع شاهد
يزكيه في حكم الهوى القذف والجرح

أما الشاعر مجد الدين الأربلي فيقول في هذا المعنى:

قلبي وطرفي ذا يسيل دماً وذا
دون الورى أنت العليم بقرحه

وهما بحبك شاهدان وإنما
تعديل كل منهما في جرحه

أما الشاعر نجم الدين إسرائيل فيدعو معشوقه بأن ينظر إلى دموعه واعتبارها شاهداً على صدق عشقه. لكن محبوبه يطعن في عدالة شاهده، وذلك بقوله:

بكيت من وجدي عليه دماً
فناظري بالدمع مقروح

وقلت طرفي في الهوى شاهد
فقال ذا الشاهد مجروح

ويحقق الشاعر محيي الدين يوسف بن ذبلاق بأن استحالة الدمع إلى دم ربما يشك في أنه دمع هيجه العشق فتجرح شهادته إذا ما عرضها واشٍ من الوشاة:

فإن سفحتْ عيناي دمعي أحمراً
فلا عجب سيل العقيق من السفح

أيجعله الواشي على الخد شاهداً
وحمرته في الجفن تؤذن بالجرح؟

نصح في محله

بعض الناس، بل الكثيرون من الناس يَحْمِلُ، أو يُحَمِّل بالأصح نفسه بالدخول في مشكلات هو في غنى عنها، فتسبب له بالتالي هموماً ينوء جسمه وعقله وفكره بثقلها فيعتل اعتلالاً يؤثر في بعض الأحيان على عقيدته.. وذلك حينا يظهر التضجر مما حل به ويكثر من الشكوى إلى غير من قدر له مسببات همه وغمه.. بل إنه ليستبطئ الفرج فيلقي الشيطان في نفسه بالوساوس باستحالة انفراج ما ألم به من مكروه.

وبعض الناس تحتمل نفسه الهموم، ولا تظهر عليه علامات تأثر من المصائب والمشكلات وهذا النوع، إما أن يكون جباراً يتحدى بجهله الأقدار التي ساقت إليه الهموم، أو مؤمناً صادق والإيمان لا تزعزعه الهموم لإيمانه بأن ما أصابه إنما هو مقدر له وأنه لو قدر غير ذلك الذي جلب له الهم لكان. وهذا يدخل في زمرة المؤمنين بقضاء الله وقدره والمستشعرين روح الآية الكريمة من سورة التوبة ١٥: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ وبهذا الإيمان الصادق يجعلون الصبر عنوان تحملهم للمصائب وهمومها، ويمدون الأمل دونما سأم، بل يتخذون من الصبر مطية تنقلهم إلى الفرج لا محالة.

.. والمؤمن الذي تحل به مشكلة تقلق باله بهمها لا يستسلم لها بل يأخذ في معالجتها وهو يستنصر بالله، ويضرع إليه بالدعاء رافعاً أكفه إلى السماء طالباً الثبات، والعون من الله على ما يعانيه.

رُوي أن الشاعر محمد بن حسن الكواكبي المولود عام ١٠٢٨هـ

والمتوفى سنة ١٠٩٦هـ والذي تولى رئاسة الإفتاء في حلب. رأى رجلاً مهموماً قد ساءت حاله، فأخذ ينصحه، ويوجهه إلى الوجهة السلية في قصيدة منها قوله:

ارفق بنفسك واعتصم
بحِمىٰ المهيمن تنشرح

واضرع له إن ضاق عنـ
ـك خناقُ حالك تنفسح

ما أمّ ساحة جوده
ذو محنة إلّا منح

أو جاءه ذو المعضلا
ت بمغلق إلّا فتح

فدع السِّوَى وانهج على النـ
ـهج القويم المتضح

واسمع مقالة ناصح
إن كنت ممن ينتصح

ما تمّ إلّا ما يريـ
ـد فدع مرادك واطّرح

واترك وساوسك التي
شغلت فؤادك تسترح

وإن كان لي ثمة تعليق على هذه الأبيات فليس بأكثر من أن أقول: إنها تمثل جرعة دواء يحسن بكل شخص عاقل أن يتداوى بها. متى ما تسرب إلى قلبه هم نائبة من نوائب الزمان.



أبيات مميزات عما سواها بأسلوب خاص!!

يحلق الشاعر بخيالاته وأحاسيسه في فضاء الشعر. فتكون الحصيلة قصائد متنوعة لا يميزها عن شعر غيره إلّا طابع أسلوبه وخلقه، وما جبلت عليه نفسه من طباع هي أشبه بخط السير الذي يتعذر عليه التحول عنه.

وعلى هذا فإنه لا يختلف اثنان في أن الشعر ألوان مختلفة من حيث التوجهات الفكرية في معالجة القضايا الاجتماعية، حتى فيما هو غير ذلك من ضروب الشعر وألوانه. ففي الغزل مثلاً تجد لكل شاعر أسلوبه الخاص به من حيث صياغة الألفاظ التي منها ما يكون موقوفاً على الغزل، فتجد الفرق قائماً بين قصيدة غزلية لزيد، وأخرى لعمرو. رغم أن كل منها قد جاء بالمفردات الغزلية ذاتها، لكن السر يكمن في كيفية تركيبها عند كل منهما.

ومصداق ذلك التفاوت في التركيب والصياغة والأسلوب يظهر جلياً حينما تقرأ قصائد لعدد من الشعراء وتتنقل بين دواوينهم.

وإذا ما ابتعدنا قليلاً عن تحقيق التفاوت الحاصل في اتجاهاتهم الشعرية وتحسسنا وقفاتهم الفنية التي يطلقون فيها العنان لألسنتهم للتلاعب بالألفاظ، وتطويعها لسلطان الشعر. وجدنا ألواناً، وأنواعاً، وكماً من القصائد ذات الصفة المميزة، والطابع الخاص. من هذه الفنيات التي تتجلى فيها اللمسات الشعرية البديعة، ما قاله الشاعر حيدر بن محمد الرومي من أبيات جعل عجز كل بيت منها معكوس كلمات صدره:

زارني محبوب قلبي سحراً
سحراً محبوب قلبي زارني

ينثني كالغصن ليناً قدّه
قدّه الغصن ليناً ينثني

سرني لما تبدّي باسماً
باسماً لما تبدي سرني

خصني من دون غيري باللقا
باللقا من دون غيري خصني

وليس الشاعر حيدر الرومي بالمتفرد بهذا اللون، بل إن هناك شعراء سلكوا ببعض أبياتهم هذا المسلك فمنهم على سبيل المثال لا الحصر الشاعر عبد الصمد بن عبد الله باكثير الكندي المتوفى سنة ١٠٢٥هـ الذي صنع أبياتاً نونية منها قوله:

تَيّمني من هويت واكمدي
واكمدي من هويت تيمني

حيرني من سناه حين بدا
حين بدا من سناه حيرني

ترشقني بالنبال مقلته
مقلته بالنبال ترشقني

عذبني بالصدود واتلفي
واتلفي بالصدود عذبني

○○○○○

عندما تتناوح القصائد بين الولد والوالد

والبحث في التراث الأدبي أشبه ما يكون في عصرنا هذا بالتنقيب عن المعادن الثمينة وحفر المناجم العميقة التي تختزن تلك المعادن في جوفها.

والذي يوفق لاستخراج أثمنها هو ذلك الذي يَجدُّ في المطالعة، ويحقق دراسات متصلة بتراثنا وأدب أوائلنا.

ولا أقول هذا لأجعل من نفس واحداً من الماهرين في تحويل المعدن الخام إلى أنواع مختلفة ولكن الذي حملني على اختيار هذا الموضوع هو ما أجده مستوطناً في كتب الأدب من ثروة هي أشبه بالبحر الذي لا ينفد مهما أغتُرف منه.

ومما هو كافٍ في ذلك البحر الذي لا يقاس له عمق، ولا يُبلَغُ له شاطئ. ويجب علينا استخراجه بالأسلوب الذي نستطيع صنعه. بعض القصائد التي لها سمة خاصة وطابع مميز خاصة منها ما كان متبادلاً بين ولد ووالده، وذلك مثل ما حصل لمحمد بن الحسن بن سليمان بن داود المُرْهِبيّ من شعراء القرن الحادي عشر الهجري. الذي بعث برسالة شعرية إلى إسماعيل بن القاسم بن محمد بن علي بن الحسني الزيدي المتوفى سنة ١٠٧٨هـ يشكو إليه والده الحسن الذي كان أحد عماله منها قوله:

لو كان سائِليَ الصَّغار وقاصدي
بالخسْف غير أبي رأيتَ إبائي

لــكــنــه ولــه الــكــرامــةُ مــن أتــى

نــص الــنــبــي بــحــقــه والآئــي[1]

فــلأصــبــرن ولا أقــول لــه قِــلــىً

قَــدْكَ أَتـئِـبْ أربـيـت فـي الـغـلـواء[2]

هــذا وحــاصــل مــا أكــابــد أنــنــي

قــد ذبــتُ غــيــر حُــشــاشــةٍ وذَمــاء

وهي طويلة بلغ بها ٤٥ بيتاً معظمها امتداح لإسماعيل بن القاسم.. وقد أجابه والده الحسن بن سليمان بقصيدة طويلة قوامها ٢٤ بيتاً، استعرض فيها مهارة ولده في الإبداع في القول، وجودة الشعر. ثم لمسة لمسة خفيفة ضمنها قوله:

مــاذا عــلــيــك إذا اكــتــسـبـت قَـبَـرةً

تُـجـزى بـهـا فـي الـخـلـد خـيـر جـزاء

ورحـمـتَ ضـعـف جـوارحـي وقـوائـي

فـحـمـلـت بـعـض الـثـقـل مـن أعـبـائـي

ووصــلــتــنــي مــمــا لــديــك بــبــدرة

مــعــدودة مــن فــضــة بــيــضــاء

إن الأبــر مــن الــبــنــيــن يــواصــل الْــ

إحــســان مــغــتــنــمــاً جــزيــل ثــنــاء

والجدير ذكره أن القصيدتين قد احتواهما كتاب «نفحة الريحانة» للمحبي.

---

(١) الآئي: الآي القرآنية الكريمة.

(٢) أتأب: خزي واستحى.

غزل ببعض حروف المعجم!!

إن يُشَبِّه شاعر الغزل محبوبته بالغزال من حيث الرشاقة وحسن الالتفاتة وجمال العينين والعنق فذاك شيء معتاد لا يقوم فارق بين الشعراء في استخدامهم له إلّا على حسن السبك، وجودة الصياغة، واختيار مواقع التشبيه.

وأن يشبه الشاعر معشوقته بغصن البان من حيث الليونة، ومشية التبختر واعتدال القوام فذلك ما كان مطروقاً من قبل الشعراء عامة. فهم يرون في غصن البان والخيزران، والموز، وما إلى ذلك من كل غصن لين مستقيم يوافق حالة ما يشبهونه به.

وأن يشبه الشاعر جمال الوجه بالقمر من حيث صفاء اللون ونقاء البشرة، وبالشمس من حيث شدة البياض والتميز عن الأقران بكلثمة الوجه وغير ذلك. فذلك ما كان معهوداً لدى الشعراء القدامى خاصة الذين تقدمت حياتهم على اكتشاف القمر، وهبوط الإنسان على سطحه، ومعرفة طبيعة جغرافيته حيث علم أنه مجرد كوكب ذي جبال وأودية وأخاديد، وأن الضوء الذي يصدر منه ما هو إلّا مجرد انعكاس أشعة الشمس من على سطحه إلى الأرض ليس إلا.

أما الشعراء الذين عملوا بحالة القمر الجغرافية فقد ضربوا صفحاً عن التشبيه به بل صرفوا شاعريتهم عن تشبيه الغواني، وذوات الحسن والجمال به.

وهذه الأشياء التي كانت عدة لشعراء الغزل عندما يعن لهم الوصف في تغزلاتهم قد نظر بعضهم إلى عاديّتها وكثرة ولوع الشعراء

بها فراح يبحث عن غيرها مما يليق بتشبيه محبوبته به، فوجد في أشكال بعض الحروف الهجائية ما يحكم أن يشبه به. وذلك مثل قول الشاعر إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن علي الخياري المتوفى سنة ١٠٨٣هـ من قصيدة له:

ألف ابن مقلة في الكتابة قدّه
حاشا فعاذله سماً باللين

والثغر ميم كلنا صاد له
والصدغ مثل الواو في التحسين(١)

وعلى الجبين بشعره سين بدت
سلب العقول بطرة وجبين(٢)

قد أدركت في الحسن غايته لذا
حار ابن مقلة عند تلك السين

والعينُ مثل العين لكن هذه
نجلاء فاقت عينَ حور العين

سبحان من خلق العيون بقول كن
فبدت لسلب نفوسنا في الحين

يا للرجال ويا لها من فتنة
كم أوقفتني في مواقف هون

حتى شهدتُ بديع حكمة خالق
في وضع ذاك النقط فوق النون

---

(١) الصياد هنا بمعنى العطشان وليس المعنى بحرف الصاد.
(٢) صدر البيت لابن سناء الملك والقصيد كلها تشطير وتعجز لنونيه ابن سنا الملك.

وعد ومفتاح قصيدة!!

قد يكون البيت الواحد الذي يتلقاه الشاعر من صديق أو قريب أو من أي شخص تربطه به رابطة عمل أو علاقة اجتماعية. مفتاحاً لقصيدة طويلة.

وهذاهو ما حدث للشاعر الحسين بن سليمان بن داود المُرْهِبيّ. من شعراء القرن الحادي عشر الهجري. وذلك حينما رفع قصة له إلى المتوكل، واسمه: إسماعيل بن القاسم بن محمد بن علي الحسني الزيدي المتوفى سنة ١٠٨٧هـ والذي نازع أخويه على إمارة اليمن بعد وفاة والده محمد بن القاسم، وآل الأمر إليه.

وقد عرض الشاعر المُرْهِبيّ كما أسلفت في قصته التي رفعها للمتوكل شوقه إلى وطنه واستأذن في الذهاب إلى أهله. فوقع المتوكل تحت قصته بيتاً واحداً فقط هو قوله:

إذا يسر اللّه أمراً أتاك
وإن حاول الناس إبطاله

فكان هذا البيت مفتاحاً ملائماً لصنع قصيدة قوامها ٢٢ بيتاً ضمنها الشاعر المُرْهِبي بيت المتوكل، وحاكها بأسلوب فيه تذكير للمتوكل، ومطالبته بالوفاء بوعده الذي ضنه بيته منها قوله:

أذكر مولايَ ما قاله
لعبد أَبَتَّكَ أحواله

شكى ما يعانيه من دهره
وأحسن في اللّه آماله

فــكـــان جـــواب إمـــام الـــهــدى
أدام لـــــه الـــلّـــــه إجـــلالــــــه

بــخــط يــد خُــلــقــتْ لــلــعــطــاء
تُــبــاري الــغـــمـــام وتـــهـــطـــالـــه

«إذا يـــــســــر الـــلّـــه أمـــراً أتـــاك
وإن حـــاول الـــنـــاسُ إبـــطـــالـــه»

فـــجـــدّد قـــولُـــك أســـمـــالـــه
وكـــان جـــوابُـــك أســـمـــى لـــه

وأشـــفـــى لـــقـــلـــب وأطـــفـــى لـــه
لـــمـــن بـــات يـــذكـــر أطـــفـــالـــه

وبـــشـــرتـــه بـــبـــلـــوغ الـــمـــنـــى
وســـكـــنـــت بـــالـــوعـــد بـــلـــبـــالـــه

ويذكرني رنين جرس هذه الأبيات وموسيقاها العذبة بأبيات أبي العتاهية[١] التي امتدح بها المهدي، ولو أنها موافقة لقافيتها ما هي موافقة لوزنها لقلت: إنها معارضة لها.



(١) أبو العتاهية هو: إسماعيل بن إبراهيم بن كيسان وكنيته. أبو إسحاق وهو مولى للعنزي ولد عام ١٣٠ وتوفي عام ٢١١هـ، من امتداحه للمهدي هذا البيت المشهور:

أتــتــه الــخــلافــة مــنــقــادة   إلــيــه تــجــرّر أذيــالــهــا

شاعر يحيط به الهوى من جميع جهاته!!

يتفنن شاعر الغزل في وصف حاله مع الهوى، فيأتي بما لا يخطر على بال القارئ مما يشنف الأذن، أقول هذا حيث وقفت على أبيات جميلة فيها من سلامة اللفظ ما يقطع التعليق على كمال الصياغة، ويرفع أي استدراك أو ملاحظة على سلامة سلاستها.

أما الأبيات الغزلية التي أُعجبت بسهولتها وبساطتها مع قوة ترابطها، وجمال تناسق معانيها وتتابعها في سلك بلاغي جميل فاز بعرضه على أنظار محبوبته حيث اكتملت فيه فنية تصوير حال حبه، واستيلاء الهوى على جميع مشاعره وأحاسيسه.. فهي للشاعر: السيد داود بن شافيز البحراني. هكذا ترجمه المحبي في كتابه «نفحة الريحانة»، والتي منها قوله:

طـــال فـــي الـــحـــب غـــرامـــي
إذ رمـــى الـــمـــهـــجـــة رامِ

هذا البيت هو أول الأبيات في «النفحة» وهو مطلع تغزلي جميل وسهل الانطلاقة نحو أي اتجاه ـ سواء في المناجاة أو الوصف، أو التشكي. لكن الشاعر توجه من منطلقه إلى شرح واقعه مع الهوى، ذلك الهوى الذي أحاط به من كل جانب من جوانبه وأخذ بقلبه إلى نار الهوان والهيام:

والـــهـــوى فـــوقـــي وتـــحـــتـــي
وورائـــــي وأمـــــامـــــي

ويـــمـــيـــنـــي ويـــســـاري
وهـــو لا شـــك إمـــامـــي

قـــائـــداً قـــلـــبـــي إلـــى نـــا
ر هـــــوان وهُـــــيـــــام

ثم هو بعد هذا يسأل محبوبته إلى متى.. أبقى في هذه الحال التي اصطلى فيها بنيران الغرام؟:

قـــلـــت لـــلـــمـــحـــبـــوب حـــتـــى
م بـــنـــيـــران الـــغـــرام

ثم جاء بعد هذا التساؤل بمعنى لطيف يذكر فيه زاد رحلته مع الهوى، ويشير بأنه زاد محسوس اسمه ـ ضريع الشوق ـ أما شرابه المحسوس أيضاً فهو على حد تعبيره من حميم الهجران:

مـــن ضـــريـــع الـــشـــوق والأحـــ
ـزان أكـــلـــي وطـــعـــامـــي

وشـــرابـــي مـــن حـــمـــيـــم الـــ
ـهـــجـــر أغـــرى بـــي حـــمـــامـــي

ويتلقى الجواب من محبوبه، وهو جواب فيه حث على التزام الصبر على بلوى الهوى، وليكن صبره على ذلك مثل صبر كرماء الخلق، لا كصبر اللئام الذين ينتهي بهم صبرهم إلى سوء الأدب والتصرف بأخلاق الحمقاء:

قـــال قـــف واصـــبـــر عـــلـــى
بـــلـــوى الـــهـــوى صـــبـــر الـــكـــرام



التقول على النفس بلسان شخص!!

يتقول بعض الحكماء والمفكرين والشعراء وأصحاب الأقلام بصفة عامة على أنفسهم بلسان شخص وهمي.. ليفرغ كل منهم على لسان ذلك الشخص ما يجول في خاطره من مشاعر وأحاسيس لا يقي منها إلّا البوح بها.. فتتلقفها الرواة، وتتناقلها الركبان كما يقولون، ويخلد منها ما كان ذا معنى سامياً وأدباً رفيعاً في بطون الكتب وسجلات تراث الأدب كمادة يستلهم منها القارئ بعض خواطره، بل إن منها ما يُلقح عقله، ويصقل فكره ومواهبه، ويوحي له بإنشاء موضوعات نثرية، أو صناعة قصائد رنانة تطرب نفس وتهز المشاعر.. لهذا نجد الأصالة في كل أدب حديث له صلة بالتراث.

وفي مجال الشعر تظهر هذه الصفة واضحة جليلة، بل إنك لتميز شعر الشاعر الذي له صلة بالتراث الأدبي عن شعر الشاعر الذي وقف ثقافته على علوم وأدب عصره فقط، واستحب أن يكون بنيوياً.

أما التقول الذي وجد مكاناً على صفحات التراث، فمنه ما جاء في إحدى قصائد الشاعر السيد أحمد بن محمد الآنسي، حيث اختار بيتاً من قصيدته الرائية التي امتدح بها الشريف زيد بن محسن بن حسين بن حسن بن أبي نمي الحسني، شريف مكة المتوفى سنة ١٠٧٧هـ وهو قوله:

إذا كنتَ مطبوباً فلا زلت هكذا

وإن كنت مسحوراً فلا بريء السحر

وواضح أنه جعل محبوبته تتقوله عليه، وتتغنى به لما رأته سقيم غرام بها.

وهذا البيت جاء ضمن أبيات غزلية طويلة استهل بها تلك الرائية، منها قوله:

رأتني سقيماً ناحلاً والهاً بها
فأدنت لها عوداً أناملها العشرُ

وغنت ببيت يلبث الركب عنده
حيارى بصوت عنده يرقص البَرُّ

إذا كنتَ مطبوباً فلا زلت هكذا
وإن كنتَ مسحوراً فلا بريء السحر

فقلتُ لها واللّه يا ابنة مالك
لما شفني إلّا القطيعة والهجر

رمتني العيون البابليات أسهماً
فأقصدني منها سهامكم الحمر

فقالت وألقت في الحشا من كلامها
تأجُّج نارٍ أنت من ملكنا حر

فواللّه ما أنسى وقد بكرت لنا
بإبريقها تسعى به القينة البكر

تدور بكاسات العقار كأنجم
إذا طلعت من برجها أفل البدر



هذه القصيدة ذكرتني حكاية!!

كان آباؤنا في منطقة سدير التي تشتهر بزراعة النخيل التي من أجودها ـ الخضرى ـ و ـ نبوت السيف ـ مفردها نبتة سيف، التي يقال: إن سبب تسميتها بهذا الاسم: إن رجلاً اسمه ـ سيف ـ استنبت نواة وتعهدها بالري حتى كبرت وصارت تؤتي أكلها الذي أصبح من أجود أنواع التمر، فسميت باسمه «نبتة سيف» وكان لطيب تمرها وحلاوته المتميزة حكاية مع أحد الأعراب. تناقلها الآباء عن الأجداد في منطقة سدير، وملخصها أن أعرابياً أتى إلى مزارع فقدم له رطباً من رطب تلك النبتة، فأخذ يأكله بنهم شديد، وسأل عن اسمها فقال له الفلاح: هي (نبتة سيف) فجعل الأعرابي يأكل ويدعو لسيف بقوله: «جعل سيف جاء بسيف ما يأتي النار». ولماشبع أخذ يشرب الماء بصورة غير عادية حتى بشم وضاق بطنه، وكاد أن ينقطع نفسه أخذ يردد قوله: «جعل سيف جاء بسيف في النار».

.. ولقد ذكرت هذه الحكاية اللطيفة عندما قرأت في رواية ـ غرابيل ـ في العدد ١٠٣٢٢ من جريدة «الرياض»[١] قصيدة للشاعر السعودي محمد بن سعد المشعان، حيث كادت الصورة أن تتجانس فيها من حيث البشم والدعاء مع ما جاء في الحكاية. لكن مأكول المشعان لم يكن رطباً من رطب «نبتة سيف» وإنما كان من جرة فول شخص يدعى ـ أبو دحدح ـ.

والحقيقة أنه منذ وقت يقدر بربع قرن والفول الجيد الصنع في

---

(١) صدرت يوم الاثنين ٢٢ شوال عام ١٤١٦هـ.

الرياض يقترن باسم أبي دحدح.. حيث أعطى حكمة صنعه والمهارة في طبخه مما جعل الناس يأتون إليه من كل نواحي مدينة الرياض ليشتروا فولاً منه.. والجدير ذكره أن أبا دحدح قد ترك هذه المهنة الشريفة وانصرف إلى طلب العلم حتى أنه أصبح في آخر عمره مرشداً.

أما قصيدة الشاعر المشعان التي تفوح طرافة ولطافة، فقد مزجها بأسلوب فيه تحذير من الشراهة في الأكل، منها قوله:

دهاني رعاه اللّه يوماً بفوله
«أبو دحدح» حتى نبأ سقف سرتي

فأوسعته مدحاً وقد كنت جائعاً
وأوسعته ذماً لأنجو بصرتي

وقد قال لي «الفوال» لا تهجو «جرتي»
فإنك آتٍ مرةً بعد مرة

ومبدأنا «فول بمال» فإن تُرد
طعاماً بلا مال فقم لـ«المبرة»

كفيناك شر الجوع بالفول ساخناً
فبادر بدفع المال تجلب مسرتي

وإلّا فأنت اليوم ضيف ولا تعد
فإن زرتني «طفران» أبرزت درتي

وأبرزتُ «قرناً» محرق النزف أخضرا
أسوك به شدقيك ساعة غرَّة

لتستنجد الدنيا ولست بمنْجَد
وتدفع رغم الشحَّ فيك ـ ببدرة ـ

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ١٤ بيتاً.

جمال الرسم في مهارة الرسام!!

ونحن إذا ما وقفنا أمام لوحة أبدع فيها رسامها، فإننا لا بد أن نعدد ما أدركه الرسام من أشياء كانت تخفى عن أنظارنا حينما ننظر إلى أصلها الطبيعي.. ونعلم بالتالي أن الرسام قد أبرز بثاقب نظره الفني ما لم تدركه أبصارنا.

فهل يا ترى أن إبداعه في رسم اللوحة كان إلهاماً من النظر الذي حرك عنده شفافية اختيار الألوان المناسبة لطبيعة الحال؟، أم أنه الخيال الذي يصور حيناً، ويتصور حيناً آخر، فيأتي التصور مطابقاً للأصل فيحصل الرسام على الثناء بموجبه. بينما الفضل كله يعود للأصل الذي تصور، أو نقل حالته بمجرد المشاهدة؟.

وقد لا يغيب الجواب عن هذا التساؤل إذا عرجنا على واقع بعض الذين تتشابه أخيلتهم وشفافية مشاعرهم بالرسامية. وجدنا أنهم يرسمون لوحات شعرية يترجمون فيها مشاعرهم بصورة يساوون فيها أنفسهم بممدوحيهم.

وكم نصادف في عرض القصائد من مدائح يخص بها الشاعر نفسه، بل إنه يجعل من نفسه فارساً وكريماً، وشجاعاً، وعالماً، وأديباً، وغنياً، وآمراً مطاعاً، وما إلى ذلك مما يستحسن أن يكون فيه من حالة. ثم بعد ذلك يقول بصريح العبارة: إن كل هذا قد ملكنيه فلان فيذكر اسمه، ولولاه ما كنت إلّا..... ثم يأتي بأوصاف يرجع بها أمام قدمي ممدوحه ركوعاً يذل به نفسه بنفسه.

من تلك الصور التي رسمها بعض الشعراء في مدائحهم ما قاله

الشاعر: الحسين بن سليمان بن داود المُرْهِبيّ من شعراء القرن الحادي عشر الهجري ممتدحاً أحدهم بقصيدة عرض فيها لامتداح نفسه. ثم عزا الأسباب التي جعلته يذكر صفاته التي امتدح بها نفسه إلى ممدوحه الذي هيأ له ذلك، بل أهله له، وذلك بقوله منها:

فرفلتُ في السربال من داوده
وعلمتُ حكم الصمت من لقمانه

ورويتُ علم الفقه عن نعمانه
وقرأتُ حُرّ الشعر عن حسانه

ورأيتُ في الحلم ابن قيس أحنفاً
وإياساً المشهور في اتقانه

وحقرتُ بطليموس دارس كتبه
ورفضت رِمْطاً ليس في يونانه

قلدتني عِقْداً نفيساً فائقاً
قدري الحقيرُ يجل عن أثمانه

وذكرت أخلاقي كبغلي رثّةً
في سرجه وحزامه وعنانه

من بعد ما كل النجوم تغارمن
قطع اللجين منوطة بحبرانه

وعليه ديباج الحرير مصوراً
والجوخ يرفل منه في ألوانه



هل الشعر زئبقي الطبيعة؟!!

وإذا ما طرحنا مثل هذا السؤال: هل الشعر زئبقي الطبيعة؟ وهل هو ينصب في القالب الذي يقرره الشاعر كيفما يشاء؟! فإن الإجابة تبدو لأول وهلة بسيطة للغاية.

وإذا ما نظرنا نظرة سطحية إلى قولهم: «الشعر شعور» ثم أمعنا في تتبع حيوية هذا الشعور، وجدناها لدى فئة من الشعراء لا تصور الحالة التي استدعتها كما هي، بل ربما أنه يكون على عكس ما لدى الفئة الأخرى من تحكم في نقل الصورة المترجمة للمشاعر. حيث أن التحكم في زئبقية الشعر لا تخضع للمشاعر فقط، وإنما تخضع لذوات عدة، منها ذات الشاعر، وذات الآداة الشعرية التي يتعامل معها الشاعر، بالإضافة إلى ذات المفردة التي تجعل الشعر يتَجلى بمعانٍ سامية وروح شاعرية جذابة.

وإذا ما اتحدت هذه الذوات اتحاد مادة الزئبق فلا بد لها من قالب بلوري يشف ما بداخل النفس من شعور لا يكشف خفي جوانبه إلّا الإشعاع الشعري الذي يلتقط الصورة من أعماق المشاعر، ويعرضها للناظر بكل وضوح.

وعلى كل حال فإن أي ناقد أو شاعر لا بد أن يدرك ما للشعر من فاعلية إذا كانت الذوات السالفة الذكر قائمة على صناعته، وبالتالي فإن أي منهما لا بد أن يوافق الشاعر الدكتور أحمد بهكلي على ما وصف به الشعر في قصيدة له جعل عنوانها «عجين النار» منها قوله:

الشعر عندي الوردُ إن فتحا
الشعر عندي الوردُ إن صوحا

الشعر عندي الحزن إذ يرتمي
غمامة تحجب شمس الضحى

الشعر عندي الفرح الـ يحتوي
قلبين طول العمر لم يفرحا

الشعر ذوب شهقة رعشة
إذا ادكرنا صحبنا النزحا

الشعر عين سفحت دمعها
تبكي دم الإنسان أن يسفحا

الشعر عندي ليس أنشوطة
ألهو بها كلا ولا مربحا

قبل اجتياح الشعر يجتاحني
كآبة أشتاق أن أفرحا

تصطف في جمجمتي أوجه
غريبة تكتب لي ما أمحى



تذييل قصيدة بعدما مضى عليها ٨٧٣ سنة!!

وقصائد شعرائنا الأوائل تستوقف بمعانيها، وفصاحتها، وجمال صنعها وقوة بنائها، وبديع صياغتها، وتمازج مفرداتها، وحسن تركيبها. كل قارئ له حس شعري وذوق في صناعة الأدب.

ولا عجب إن حمله الإعجاب بها على إعادة قراءتها مرات ومرات واستودعها في صدره، بل لا غرابة في ذلك. فالشعر ديوان العرب.

ولماذا لا تكون للشعر هذه المكانة وهو قد صور أخلاق من سبقونا، ورصد لنا عاداتهم وتقاليدهم، وحمل إلينا مفاهيم حياتهم الاجتماعية بكل ما فيها من بؤس وسعادة، وشقاء ورفاه.

والصورة التي استوقفتني أثناء قراءتي ترجمة جانب من حياة الشاعر الشريف أحمد بن مسعود بن حسن بن أبي نمي المتوفي سنة ١٠٤١هـ تتلخص في أن ابن عمه الشريف محسن بن الحسن بن أبي نمي كان يطرب لأبيات الشاعر الحسين بن مطير بن مكمل مولى بني أسد بن خزيمة المتوفى سنة ١٦٩هـ والتي منها قوله:

ولـيـكـبـد مـقـروحـة مـن يـبـيـعـنـي
بـهـا كـبـداً لـيـسـت بـذات قـروح

أبى الناس وَيْبَ الناسِ لا يشترونها
ومـن يـشـتـري ذا عـلـة بـصـحـيـح

أحنُّ من الشوق الذي في جوانحي
حـنـيـن غـصـيـص بـالـشـراب قـريـح

ولشدة طربه لها، وموافقة معانيها لما يكابده من شوق أشبه ما يكون بالمكابدة التي سجلها الحسين بن مطير في الأبيات السابقة بكل وضوح لفظي، في أسلوب تنجذب إليه النفس..

فقد طلب إلى السيد الشريف ابن أحمد بن مسعود تذييلها بما يوافق هوى نفسه، فاستجاب الشريف أحمد فذيلها بعدة أبيات منها قوله:

على سالف لو كان يشرى زمانُه
شريتُ ولكن لا يباع بروحي

تقضّى وأبقى لاعجاً يستفزه
تألق برقٍ أو تنسُّمُ ريح

وقلباً إلى الأطلال والضال لم يزل
نزوعاً وعن أخياه غَيْرَ نزوح

فليت بذات الضال نُجْبُ أحبتي
طِلاحُ فنضو الشوق غيرُ طليح

يجشمه بالأبرقين فينزل
وبرق سري وهنا وصوت صدوح

والأبيات قد جاءت أكثر من ذلك في ـ سلافة العصر ـ وفي ـ نفحة الريحانة ـ.



بحث في معنى شائع!!

ولبعض العبارات مفهوم خاص بأصحاب الألسنة التي تتداولها بينما يستغرب معناها أو ينكر من يذهب إلى حقيقة مغزاها وواقع لغتها.

من تلك العبارات التي كان أهل مكة يستخدمونها في التعبير عن الاشتياق لمن حضر بعد غياب. قولهم: «أوحشنا أنسكم». ومن لا يفهم معناها الخاص بهم يفسرها بأن الوحشة قد حصلت بسبب حضوره بعد غيابه..

قال الشاعر بدر الدين بن محمد بن أبي بكر بن عمر الدماميني المخزومي المتوفى سنة ٨٢٧هـ:

يا ساكني مكة لا زلتم
أنساً لنا إنّيَ لم أنْسَكُمْ

ما فيكم عيب سوى قولكم
عند اللقاء أوحشنا أُنْسُكم

ولما وقف الشاعر عبد القادر بن محمد بن يحيى الحسيني الطبري المكي المتوفى سنة ١٠٣٣هـ على قول الدماميني. قال مجيباً:

ما عيبنا هذا ولكنه
من سوء فهم جاء من حَدْسِكم

لم نعن بالإيناس عند اللقا
بل ما مضى فابكوا على نفسكم

وحذا حذوه ولده زين العابدين بن عبد القادر بن محمد الطبري

المكي المولود بمكة سنة ١٠٠٢هـ والمتوفى بمكة سنة ١٠٧٨هـ فقال أبياتاً في هذا المعنى منها قوله:

يا مظهر العيب على قولنا
عند اللقا أوحشنا أُنْسُكم

ما قصدنا ما قد جنحتم له
من خطأ قد جاء في فهمكم

والقصد فقد الأنس فيما مضى
لا ضده الواقع في وهمكم

ويروى أنه لما وقف الشاعر أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الرؤوف المكي المتوفى سنة ١٠٧٧هـ قال: مجيباً ومعتذراً عن الدماميني في أبيات ختمها بما يفيد بأن ذلك التعبير كان شائعاً عند أهل مكة، وهو في نفس الوقت مستساغاً في ألسنتهم، وذلك بقوله:

فإن هذا سائغ شائع
برهانه أوحشنا أُنسكم

وبهذا التجاوب الشعري اتضح المعنى، وانتفى العيب من اللفظ وفقاً للمفهوم السائد على ألسنة أهل مكة.



لا يا مطر.. ليس الهدف من ترحال العرب أن يحلوا ضيوفاً في كل مكان!!

في الصحة الأخيرة من العدد ٧٨١ من مجلة ـ سيدتي ـ الصادر يوم السبت ١٢ شوال عام١٤١٦هـ كتب: مطر الأحمدي، موضوعاً عنوانه «نباتي» ضمنه خاطرة نقدية لبعض صفات العرب. خاصة منها ـ الكرم ـ حيث قال بالحرف الواحد: والعرب في الماضي البعيد والماضي القريب لم تكن تحصل على اللحم، لذلك فاللحم عزيز. وكان العرب يفرحون بالضيف ويكرمون الضيف ليس لسواد عيونه، لكنه عذرهم ـ المشروع ـ في أكل اللحم. والعرب اخترعوا الكلام حتى يضمنوا لأنفسهم وجبة دسمة في غربتهم وخلال أسفارهم، وأحب العرب الترحال حتى يحلوا ضيوفاً في كل مكان ينزلون به.. إلى آخر الكلام الذي فيه بعض الإشارات إلى أكلة النباتات المعروفين بـ«النباتيين».

وإذا صرفنا النظر عن التساؤل عن عربية مطر الأحمدي، فإن لسان الحال يملي تساؤلات منها: إذ لم يكن الكرم سجية العرب فمن الكرام يا ترى، الفرس أم الروم؟ أم من يكون أكرم من العرب في بني آدم؟... وسؤال خاص أتجه به إليك يا مطر فأقول: في أي تاريخ أدبي قرأت أن العرب لا يفرحون بالضيف لسواد عيونه ولكن ليكون سبباً لأكلهم اللحم؟ وفي أي تراث أدبي قرأت أن العرب أحبوا الترحال حتى يحلوا ضيوفاً في كل مكان؟. إن كنت قرأت ذلك ولم تنكره على كاتبه، فأنت صدى يرد الصوت لتبلغه إلى أذن من

جهل تاريخ العرب ونيرانهم التي توقد لجلب الأضياف في غسق الليل.

وبعد فهذه الأسئلة فيها تذكير بكرم العرب، وفي الإجابة عليها تأكيد بأنه لا أحد أكرم من العرب.. وهي: لماذا سمي هاشم بـ«هاشم»؟ ولماذا لا يستطيع من يغرف مرقاً من قدر ابن جدعان إلّا وهو راكب جملاً؟ وما هي قصة مقصورة دريد بن الصمة؟ ولماذا ضرب حاتم الطائي بالمثل في الكرم.

أخيراً أرجو أن تبحث عن إجابات هذه التساؤلات، ثم ترصدها لديك لتحاج من يتهم العرب بالبخل ثم احفظ أبيات عتبة بن بجير الحارثي، وضمها إلى تلك الإجابات. حتى لا تصف العرب بأنهم يترحلون من أجل الضيافة ولتدرك بأن طبيعة حياتهم تفرض عليهم أن يستضيفوا وأن يضيفوا:

ومستبنح بات الصدى يستتيهه
إلى كل صوت فهو في الرحل جانحُ

فقلت لأهلي: ما بغام مطية
وسارٍ أضافته الكلاب النوابح

فقالوا: غريب طارق طوحت به
متون الغيافي والخطوب الطوائح

فقمتم ولم أجثم مكاني ولم تقم
مع النفس علات النفوس الشحائح

وناديت شبلاً فاستجاب وربما
ضمنا قرى عشر لمن لا تُصافح

فقام أبو ضيفٍ كريم كأنه
إذا جد من فرط الفكاهة مازح

إلى جذم مال قد نهكنا سوامه

واعراضنا فيه بواق صحائح

جعلناه دون الذم حتى كأنه

إذا عُدّ مال المكثرين منائح

○ ○ ○ ○ ○

القصيدة الرنانة في تقريظ الريحانة!!

والريحانة ـ هو عنوان كتاب تاريخي أدبي جامع لتراجم كوكبات من العلماء وأهل الفكر، والأدباء والشعراء، والظرفاء، والنبغاء، والأذكياء ـ ألفه محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي المولود عام ١٠٦١هـ وقيل: سنة ١٠٦٤هـ وتوفي بدمشق سنة ١١١١هـ وصلي عليه في الجامع الأموي.

وقد تشكلت الريحانة وعنوانها الكامل هو «نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة» من خمسة أجزاء احتوت ثمانية أبواب هي: ١ ـ نوادر أدباء حلب ٢ ـ محاسن شعراء دمشق ٣ ـ نوادر نبغاء الروم ٤ ـ ظرفاء العراق والبحرين ٥ ـ لطائف لطفاء اليمن ٦ ـ نبغاء الحجاز ٧ ـ غرائب نبهاء مصر ٨ ـ تحائف أذكياء المغرب.

ثم استدرك المحبي ما فاته تدوينه في الأجزاء الخمسة فجعله في جزء مستقل سماه «ذيل الريحانة». وقد قسمه إلى ثلاثة فصول: الفصل الأول في من انتشا من بلغاء دمشق الشام. الفصل الثاني: في من انتشا من بلغاء المدينة المنورة. الفصل الثالث: في نبهاء حلب الشهباء.

والحقيقة أنه كتاب قد أغنى عن كثير من الكتب الأدبية والتاريخية، واعتبر واحداً من مراجع الأدب، ونال إعجاب من كان معاصراً مؤلفه. بل إن أحدهم، وهو أحمد بن أحمد الآنسي المعروف بالزنمة والمتوفى سنة ١١١٩هـ قد أعجب به إعجاباً كبيراً حيث حمله على تقريظه في قصيدة بعث بها إلى مؤلفه. منها قوله:

لشمس المعالي والبلاغة إشراق
وللنظم من بعد التّقيُّدِ إطلاق

و«ريحانة» المولى الخفاجيّ عَرْفُها
بروض من الآداب والعلم عَبّاق

ويزيد من ثنائه على مادته، وعلى ما تم استدراكه في ذيل الريحانة بجهد كبير وبعمل أدبي بارع وذلك بقوله:

يحق لهذا الذيل إن قال تائهاً
أنا الرأس و«الريحانة» الخف والساق

كأن رياضاً ما حواه قمطره
فمن طيه نشرُ اللطائف خفاق

كأن معانيه معانٍ لمعبد
يجاوبه مهما ترنم إسحاق

كأن به هاروت ينفث سحره
فلقوم إصغاء إليه وإطراق

كأن ذوي الآداب عند سماعه
وقد ثملوا صرعى مُدامٍ فما فاقوا

كأن التّواريَ والجناس خرائد
تشاهدها في موقف الأنس عشاق

والقصيدة طويلة فهي تبلغ ثلاثين بيتاً تضمها الجزء الثالث من نفحة الريحانة.



وقفة إلى جانب متغزل!!

يلاقي بعض شعراء الغزل شيئاً من اللوم بسبب بعض مبالغاتهم في أساليب تغزلهم.. وتفسير هذا اللوم ربما أخذ مساراً ذا فهمين من حيث تأول المتلقي له من الشعراء خاصة.. بل ربما كان تأويله هو عين الحقيقة التي تصيب مقتلاً من اللائم..

فالمفهوم الأول: هو أن اللائم يكون صادقاً في لومه، وناصحاً للشاعر بترك التغزل الذي يسيئ إلى النساء المحصنات، ويمس كرامتهن ببعض العبارات التي تصور شيئاً من التبذل المختلق. وهذا المفهوم وإن كان فيه على الشاعر المطبوع على قول الغزل بعض العضاضة إلّا أنه حقيقة تبتعد عن أي تأويل.

أما المفهوم الثاني لذلك اللوم فإنه يفسر بأن اللائم إنما قدم لومه للشاعر لأمرين: إما أنه قال الشعر فحسد الشاعر على مواهبه الشعرية وأراد أن يحدث بلبلة في نفس الشاعر بلومه الذي وضعه في صورة نصح صوري كاذب لا يمت إلى النصح الصادق بصلة.. أو أنه شاعر ولم يأت فيما يتغزل به بمثل ما أتى به. فاتخذ من اللوم وسيلة لتحطيم البنية الشاعرية الجميلة التي يمتلك مقومات إنشائها ذلك الشاعر الذي تجلت مقدرته وجدراته، فأصبح بهما موضع حسد ذلك اللائم له.

لكن شاعر الغزل الذي يتلقى مثل هذه الملامات المبنية على تلك المفاهيم، لا يعدم من يقف إلى جانبه ويشجعه على صنع البديع في الغزل.. بل يؤيده ويطالبه بالمضي في صنع القصائد الجميلة ذات الطابع الغزلي السحري ومثل هذه الصورة التأييدية تتكرر في كثير من

المواقف. فقد روي أن الشاعر مصطفى بن فتح الله قال: كنت بالمدينة نظمت قصيدة في الغزل، فلامني عليها بعض الناس، وبلغ أحمد بن محمد مكي ذلك فأتى منزل ليروّحني فلم يجدني، فكتب قصيدة، قلت القصيدة طويلة أقتطف منها قوله:

فيا من له طبع أرق من الصبا
لقد ساءني ما قد لقيت من العذل

فلا تستمع قولاً لواشٍ وناصح
ولا ترعوى عن حب ذي الأعين النجل

فما أنت في حب الجآذر أوّلاً
أشاع الهوى أسراره يا أخا الفضل

بذا قد قضي شرع الغرام بأهله
فنصْبرُ في حكم الغرام على القتل

فأجابه ابن فتح الله بقصيدة طويلة منها قوله:

بعثتَ بخودٍ يُخجل البدرَ حسنُها
عقيلة أتراب بها صرتُ ذا شُغل

سلافية الألفاظ شمسية السنا
مداميّة الألمي لحال الشجى تُمْلي

فأفرشتها خدِّي وأوسدتُها يدي
وصيرتها منّي بمنزلة الخِل

وقبلتها ألفاً وألفاً وضعفها
فحيّاك ربُّ العرش يا زاكي الأصل



القول بأن مناطق الحكم الذاتي ستكون سجوناً للفلسطينيين حقيقة لا تنبؤاً!!

إن الحكم الذاتي الذي زُعم أنه من ثمار السلام. يعني أن الفلسطينيين يحكمون ذاتهم في رقعة من أرض فلسطين. وما سوى ذلك فهم فيه محكومون. والتجارب أظهرت أنهم لا يحكمون ذاتهم في المناطق التي قيل أنها تحررت من ربق إسرائيل كغزة وأريحا ونابلس وبعض المناطق التي ليست بذات أهمية. فبمجرد ما يحدث حوادث فردية تمثل انتقاماً يقوم به فلسطيني واحد لتعسفات مارسها يهود في المناطق التي تقع فيما يسمونه بالحكم الذاتي. تقوم قيامة يهود فيلغون كل اعتبار أدبي لمؤتمر مدريد للسلام. ويتناسون كل اتفاق متعلق بحدود المناطق التي تقع تحت الحكم الذاتي. فتقام حولها الأسلاك الشائكة ويُضيّق على سكانها طوق العزلة الذي يصل إلى حد تجويع من فيها من الفلسطينيين. كما حدث في شهر فبراير عام ١٩٩٦م.

ثم إن هذه الردود الفردية من الفسلطينيين. توصف من قبل أعداء الإسلام قاطبة بالإرهاب. وهو إرهاب موقوف وصفه في بعض الأحيان على العرب. ولا توصف به أفعال الصرب الذين يرتكبون أفضع الجرائم في المسلمين ويعلنون التصفية العرقية في البوسنة.. ولا توصف به أفعال الروس في الشيشان الذي يهدمون قرى بكاملها على أهلها.

وتعريف الإرهاب أطلق أيضاً من الذين يزعمون أنهم صناع السلام على الفلسطينيين الذين ينتقمون بصور فردية لمذابح جماعية يمارسها

يهود ضدهم. وذلك في المؤتمر الذي عقد في شهر مارس عام ١٩٩٦م في شرم الشيخ بجمهورية مصر.

أما السلام الذي تسعى إليه إسرائيل وتبنت عقد المؤتمرات له دول تجاهر بعداوة المسلمين في كل مناسبة. وتنقض كل قرار تتخذه الأمم المتحدة إذا ما كان في صالح العرب والمسلمين. بل تعمل على إصدار قرار مضاد له. فإنه سلام صوري بالنسبة للفلسطينيين. وإنما الذي يقصد به إقامة علاقات صداقة لإسرائيل مع جيرانها العرب لأمن حدودها من ناحية وتخدير للجهود التي تشاطر الفلسطينيين من ناحية أخرى. بل لوأدها بتلك العلاقات التي تحاول إسرائيل توثيقها بمعاهدات تستشهد عليها تتساوى معها في عداء الإسلام والمسلمين جميعاً.. والذي لا يستبعد بل يجزم بوقوعه. هو أن إسرائيل ستجعل المناطق التي منحتها حكماً ذاتياً سجوناً عامة للفلسطينيين في يوم من الأيام. وذلك عندما يعود الفلسطينيون المشردون إلى بلادهم.

والمسلمون عندما يحضرون مؤتمرات السلام. يقولون لعل وعسى أن يكون سلام حقيقي.. وعلى الرغم من حذرهم من الخداع فهم يصغون لمثل قول الشاعر السعودي المعاصر صالح حمد المالك. وقصيدة له عنوانها: «أهلاً بالسلام»:

أهلاً بسلم لم يشبه خداع
أهلاً به ما لم يشنه صداع

ما لم يكن للعرب فيه نكسة
تخزي وللقدس الشريف ضياع

أهلاً بمؤتمر السلام وسعيه
أهلاً بكم يا أيها الصناع

كونوا مع الحق الصراح وأهله
يصغى إلى داعيكم ويطاع

لا تجعلوه لعبة وخديعة
العين تنكر تلك والأسماع

إني أسائلكم وأنت كلكم
أدرى بما تخفونه ويشاع

لم لا ينفذ ما أقر بمجلس
قسراً وكل معاند ينصاع

لم لا يكون العدل عدلاً شاملاً
كي تستقر وتهدأ الأوضاع

والقصيدة أطول من ذلك بكثير فهي تبلغ ٣٤ بيتاً نشرتها جريدة الرياض في عددها ١٠١٤٥ الصادر يوم الأربعاء ١٥ ذي القعدة عام ١٤١٦هـ.



أبيات ذات واوات

يلعب بعض الشعراء بالألفاظ لعب الصبية بالخذاريف التي يحكمون خيطها ويجعلونها تسبح بحركة أشبه ما تكون بدوران عجلة العربة في أقصى سرعتها.

وإنك لتستدل على سيطرتهم على الألفاظ. وعمق إحاطتهم بمفردات اللغة بما يصنعونه من أشعار يلزمون أنفسهم فيها بما لا يلزم لصناعة الشعر فلا تجد وأنت تقرأ ما قد تفننوا في صناعته ما تشبههم به إلّا برعاة الأغنام الذين لا تند عن أعينهم واحدة من قطعانهم مهما تغيرت الظروف المناخية أو الجغرافية على حياتهم الرعوية.

ومن غريب ما وقعت عليه عيني من صناعة الشعر المتميز بتقييد قوافيه ببعض الحروف الهجائية المتتالية من حيث اللفظ والرسم. أبيات التزم فيها شعراؤها بأن يكون أول البيت وآخره واوين.

فمن الشعراء الذين صنعوا أبياتاً واوية ـ إن صح التعبير ـ الشاعر إبراهيم بن محمد بن بهادر القرشي المعروف بابن زُقّاعة ـ بضم الزاي وتشديد القاف ـ المولود سنة ٧٤٥هـ. والمتوفى سنة ٨١٠هـ، والتي منها قوله:

وَوَرْدِيٍّ خَـدٍّ نَـرجـسـيٍّ لـواحـظ
مشايخ علم السحر عن لحظة رَوَوْا

وواوات صدغيـه حكـين عقـاربـا
من المسك فوق الجلنار رقد التووْا

ووجنته الحمرا تلوح كجمرة
عليها قلوب العاشقين قد انكووا

وودِّي له باق ولست بسامع
لقولٍ حسودٍ والعواذل قد عَوَوْا

ووالله لا أسلو ولو صرت رمة
وكيف وأحشاي على حبه انطووا

ومن الشعراء الذين تعشقوا هذا النوع المتميز من الالتزام لما لا يلزم. واقتفوا أثر ابن زُقّاعة. من حيث تكرر لفظ الحرف نفسه في بداية البيت وقافيته. بل وافقوه موافقة أخذت طابع ما يعرف بالمعارضة في الشعر. الشاعر أحمد بن محمد علي المدرس وذلك بقوله من جملة أبيات أوردها، المحبي في كتابه الشهير: «نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة».

ووادٍ به قد كان بالصحب جمعنا
ولكنهم للقلب بالبعد قد كووا

ووقْد ناري هجرهم وبعادهم
وللجسم مني يا خليلي قد شووا

وقد ختم المدرس أبياته تلك بقوله:

وودِّي لها من قبل آدم ثابت
ولستُ كأقوام إلى غيرها هووا



مرض جنون البقر.. تاريخ ظهوره واستفحاله!!

[١]

في شهر مارس من عام ١٩٩٦م الموافق شوال عام ١٤١٦هـ، تناقلت وسائل الإعلام بأنواعها خبر جنون البقر في بريطانيا. وترددت إشاعات تدعم في بعض الأحيان بأدلة على أن جنون البقر قد حدث نتيجة إصابة الجهاز العصبي المركزي لدى البقر.. وتؤكد الأبحاث أن أول ظهور هذا المرض في البقر كان في عام ١٩٨٦م. وأنه في هذا العام ١٩٩٦م قد تفشى بصورة مرعبة. حيث أصيب به نحواً من ١٢ مليون بقرة في بريطانيا.

أما كيف أصيبت الأبقار بهذا المرض.. فقد أفادت بعض التقارير أنه مرض مستوطن في بريطاينا منذ ٢٥٠ سنة ولكنه كان متفشي في بعض الأغنام. ولم ينتقل إلى الأبقار إلّا في عام ١٩٨٦م، وإن الذي سبب هذا المرض ميكروب من نوع جديد هو أدنى من الفيروس وأشد ضراوة. وأطلقوا عليه اسم «بريون» وهو لا يرى بالعين المجردة. ولا بالمجهر العادي الضوئي. وإنما يرى بعد فحصه باستخدام الإلكتروني بعد تكبيره بما يزيد على «٢٠٠,٠٠٠» مرة وإذا ما أصاب البقر فإنه لا يكتشف إلّا بعد فترة قد تصل إلى ثلاثة أعوام. وقد يظهر خلال ثلاثة أشهر.. أما أعراضه فتظهر في الاضطراب العصبي في الأرجل. ويظهر خلل في المشي. واتساع خطوات الأرجل الخلفية مع اهتزاز وارتعاش.

وقد قال العلماء: إن مرض جنون البقر مرض وبائي معدٍ. وأشارت بعض وسائل الإعلام الغربية أن جنون البقر هذا قد انتشر من الأبقار البريطانية المستوردة في كل من سويسرا وبلجيكا. وهولندا.

وغيرها.. وإن بعض الدراسات قد أوضحت بأن ٧٠٪ تقريباً من الأبقار التي ولدت في عام ١٩٨٨م كانت مصابة بهذا المرض.. وعلى إثر تناقل انتشار مرض جنون البقر في الأبقار البريطانية والتي تحاول بريطانيا التقليل من شأنها واعتبارها ضجة أقامتها دول كانت بريطانيا تزاحمها في أسواق المستهلك للحوم.. رصد الشاعر السعودي الساخر محمد بن سعد المشعان هذا في أبيات منها قوله:

بقر الإنجليز أعقل من أن
يصف الناسُ بعضه بالجنون

كل مرعى لديه أخضر دوماً
زاهي اللون رغم مر السنين

فإذا العجل تاق إلى صفرة التـ
بن وأبدى الخوار عذب اللحون

يترك «البرسيم» ريّان بالما
ء ويهفو إلى جفاف الحزون

قال من قال: قد خولط العـ
جل فسحقا لذات القرون

جاء «كاوْبُوْي» وزار لندن يوما
وروى القومُ قولهم ذا الشجون

قال ابن «الرّوْدُيُو» علاج حميد
ذو شفاء لكل عجل ثمين

فإذا ما أتعب العجل بالركـ
ض فإن الإجهاد خير معين

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ نحواً من ١١ بيتاً وقد نشرتها جريدة الرياض في العدد ١٠١٧٥ يوم لاثنين ٢٧ ذي القعدة عام ١٤١٦هـ.

جنون البقر وما له من خطر!!

[٢]

في موضوع تقدم تحدثت عن مرض جنون البقر حديثاً كان شبه موقوف على التعريف بأعراض المرض وبمنشئه ووصف فيروسه ووبائيته. وما إلى ذلك مما قاله بعض العلماء عنه.

وفي هذا الموضوع سنتعرف على مخاطره بالنسبة للإنسان. حيث أحدث ظهور هذا المرض ضجة عالمية. أوجدت رعباً في الناس وخوفاً من الإصابة به. وذلك بعد أن تواترت الأخبار الصحيحة عن ظهوره في بريطانيا في شهر مارس عام ١٩٩٦م، إلّا أنها لم تنف ولم تثبت مدى انتقاله إلى الإنسان عن طريق الألبان ومشتقاتها..» أما اللحوم فقد رأى بعض العلماء احتمال الانتقال عن طريق أكلها. بل إن بعض المصادر أكدت أنه منذ شهر مارس عام ١٩٩٦م، حتى شهر إبريل عام ١٩٩٦م أصيب في بريطانيا ١٢ شخصاً مات منهم ثمانية من جراء عدوى مرض جنون البقر.

وهناك تساؤل يقول: هل سيصبح جنون البقر طاعون القرن الحادي والعشرين مثلما أصبح الإيدز طاعون القرن العشرين حينما بدأ ظهوره عام ١٩٨١م.

أما طرق الوقاية من إصابة البشر بمرض جنون البقر وهو ميكروب عرف بـ«بريون» فهناك وصايا تحث على تجنب الأبقار المريضة ومنتجاتها لأن طبيعة ميكروب «البريون» المسبب لجنون البقر مقاومة للحرارة العالية التي هي أعلى من درجات بسترة اللبن وطهي الطعام.. لذا رؤي أن

الوسيلة الناجحة للتخلص من العدوى هو إحراق الأبقار المصابة. ومنتجاتها في محارق خاصة.

وما زالت المشكلة قائمة بالنسبة لبريطانيا في كيفية التخلص من ١٢ مليون رأس من الأبقار المجنونة أتدفنها أم تحرقها أم تلقي بها في البحر؟ غير أن الإلقاء بها في البحر ربما كان مستبعداً.. والحقيقة أن التخلص من هذا الكم الهائل فسوف يتسبب في خسارة هائلة لبريطانيا حيث تقدر قيمة الأبقار بعشرات المليارات من الدولارات.. وقد قابل واقع الأبقار هذه ارتفاع في سعر الدجاج اللاحم. وذلك للإقبال على شرائه والانصراف عن شراء لحوم البقر.. وفي ذلك قال الشاعر السعودي محمد سعد المشعان أبياتاً خلط فيها الجد بالهزل منها:

إلى دجاج في البلاد ساخط
إلى دجاج بات قاصر النظر

قيلت له حكاية عن لوثة
صارت تعيش في جماجم البقر

وقيل دار الإنجليز أكدت
ما قيل سراً عن حقيقة الخبر

فقررت مواطن أن تمنع الـ
عجول ـ لا تثريب ـ خشية الضرر

بعض الأمور واجب ور
بما يستوجب الحزم الحذر

لكن كل «فرخة» في دارنا
تصاعدت بسعرها إلى القمر

لذا.. فأسعار الدجاج حلّقت
طبقاً لرأي الديك لا رأي البشر

ومـا الـعـلاج غـيـر أن نـرقـى إلـى
سـقـف الـصـيـام فـتـرة كـي نـنـتـصـر

والأبيات أكثر من ذلك فهي تبلغ ١١ بيتاً وقد نشرت في جريدة الرياض العدد ١٠١٥٠ الاثنين ٢٠ ذي القعدة عام ١٤١٦هـ.



أصيبت بعض جهات الرياض ببرد لم يعهد!!

قبل غروب شمس يوم السبت الموافق ٤ ذي القعدة عام ١٤١٦هـ تلبدت سماء الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية بالغيوم المتراكمة. وزمجر الرعد واشتعلت السماء بالبروق. وهبت العواصف التي بلغت سرعتها ٧٥كم في الساعة ومع غروب الشمس هطلت الأمطار بغزارة لم يعرف لها مثيل من عدة عقود من السنين. وقد تخلل المطر خاصة على الأحياء الشمالية والشرقية من الرياض برد عظيم زاد في حجمه على بيض الدجاج. وبلغت كميات الأمطار ٤ملم وتعطلت الحركة في كثير من الطرق. وامتلأت بعض الأنفاق بالسيول التي وصل منسوبها فيها إلى أكثر من ٤ أمتار خاصة منها ما كان واقعاً في الخط الدائري كمخرج ١١، ١٣، ١٤ وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وحدثت خسائر مادية جسيمة معظمها يتمثل في تحطيم السيارات. وحدث وفيات كثيرة بسبب الغرق في المستنقعات وأخليت منازل كثير في بعض الأحياء كحي «عتيقة» خوفاً من سقوطها.. وقد عطلت الدراسة يوم الأحد ١١/٥/ ١٤١٦هـ في جميع المدارس والجامعات بالرياض. حيث استخدمت بعض مدارس البنات مأوى لبعض الأسر التي خشي من تهدم منازلها عليها.

واستنفرت جميع القوى من رجال المرور والدفاع المدني. ودوريات النجدة مع المؤسسات ذات المسؤولية. كشركة الكهرباء ومصلحة المياه. ووزارة البرق والهاتف. ووزارة الصحة حيث جهز في مستشفى الرياض فقط ٢٠٠ سرير. وأخليت كثير من المستشفيات وكثفت الطوارئ لاستقبال المصابين.

وبالمناسبة فقد ثبت بطلان تقدير المهندسين الذين يقدرون استيعاب مجاري المياه وتصريف السيول بالجالونات. وقد تساءل المتحدثون عن ذلك تساؤلاً يحقق الإيمان بقدر الله وقدرته. فقالوا في تساؤلهم: من ذا الذي يقدر ما ينزل الله وما يفعله؟. وقد ذكر بعضهم وخاصة المسنين منهم أن الرياض لم تشهد مثل ذلك البرد وكثافة المطر منذ ٥٠ عاماً أما المناطق الأخرى من المملكة فقد نالها من الأمطار ما جعل سدودها تمتلي ووديانها تسيل. بل إنه وقع في بعض الجهات حوادث كثيرة وموت خلق من الناس الذين كانوا يقومون بنزهات برية بعيدة عن الرياض من الناحية الشمالية.

ولقد رسم هذه الصورة أحد المتضررين من المقيمين بالرياض وهو الشاعر: حاج يوسف عبد الرحيم في قالب شعري وصف فيه حالته وهو في سيارته «السوزوكي» وحالة من شاهده أثناء هطول البرد. أقتطف من قوله هذه الأبيات(١):

احلولكت دوني السماء وزمجرت
وتفطرت من غير وعد مسبق

ما بين طرفة مقلة ورجوعها
صار «السوزوكي» في الطريق كزورق

وبقيت ملاحاً أريد جزيرة
والموج مندفع بثلج يرتقي

لكن من يدري مصيبة غيره
تبقى مصيبته كحبة فستق

طفل تشبث بالمرايا خشية
من سيل ثلج كاسح متدفق

---

(١) نشرت القصيدة بالعدد ١٠١٥٥ السبت ٢٥ ذي القعدة عام ١٤١٦هـ وعدد أبياتها ١٦ بيتاً.

فإذا بقنبلة من البَرَد ارتمت

كالمنجنيق على الزجاج الأنيق

فغدا كبيت العنكبوت زجاجه

ينبيك عن هول وشر ممزق

لم يبق غصن في الرياض بنضرة

أو زهرة نعمت بنسمة رقرق

نشرت القصيدة بالعدد ١٠١٥٥ السبت ٢٥ ذي العقدة عام ١٤١٦هـ، وعدد أبياتها ١٦ بيتاً.



هو جماع كذا وكذا

والشعراء لا يألون جهداً في كد قرائحهم بالمديح. بل إن بعضهم لا تقوم حياته إلّا على التكسب به فتراه يبحث عن البديع المطرب. والمفردة العذبة. والعبارة الرنانة التي تهز مشاعر ممدوحه. بل إنه ليشغل فكره ويجهد خياله حتى لا يضارعه أحد في المديح فيعمد إلى وصف ممدوحه بالكمال في جميع مناحي الحياة التي يمارسها بصفة خاصة أو عامة.

والنظر في أمر هذا النوع من المدائح ينصب في تشخيصه على أنه يأتي من باب المبالغة أكثر من كونه واقعاً يعيشه الممدوح. ولهذا فإن الناقد يرفع عنهم الملامة ويلتمس لهم العذر على اعتبار أنهم يحاولون التكسب بالمديح. وأن التكسب لا يصاب إلّا بالمبالغة في المديح.

أما المبالغة فيما عدا التكسب بها فإنها تأتي من زاوية المجاملة التي تخضع لأمور تسيرها العلاقات الاجتماعية المتجردة من المنفعة المادية.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما روي من أن الشاعر محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبى المولود عام ١٠٦١ والمتوفى عام ١١١١هـ وهو مؤلف الكتاب الشهير «نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة» امتدح أحمد بن محمد بن حسن الكواكبي الحلبي الحنفي المولود بحلب سنة ١٠٥٤هـ والمتوفى سنة ١١٢٤هـ بقصيدة وصفه فيها باتساع أفقه المعرفي والثقافي والعلمي. وشبهه بفطاحل العلماء المتخصصين والمتبحرين في العلوم. وذلك بقوله منها:

إذا فسّروا والتفت الساق بينهم
ودارتْ رُحاهم في دقيق التشاغب

فما عدلوا منه بمثل ابن عادل
ولا فخروا بالفخر عند الثعالبي[1]

وإن حدثوا قال البخاري ليته
تقدمني يوماً ليستدَّ جانبي[2]

وإن ذكروا الإسناد سلّم مُسْلم
فَمَن فوقه حتى البراء بن عازب[3]

ومهما روَوا قال الإمامان سلموا
له فهو منا عَوْضَ ضربة لازب

ومهما نَحَوْا بزّ الكسائيّ ثوبه
وجرّبه عمرو ذُيول المآرب[4]

وإن وزنوا قال الخليل بن أحمد
عُروضُ عَروضي ثَمَّ غير مناسب[5]

وإن نظموا قال ابن أوس مدائحي
سبايا وقال البحتريُّ نسائبي[6]

---

(١) ابن عادل هو زين الدين عمر بن عادل. له تفسير اسمه اللباب كان حياً عام ٨٧٩هـ حاشية الريحانة ٥/١٠، والثعالبي معروف إمام في اللغة وله تفسير ومؤلفات أشهرها «يتيمة الدهر».

(٢) والبخاري ومسلم معروفان وهما مرجع في الأحاديث النبوية الصحيحة.

(٣) البراء: هو البراء بن عازب بن الحارث الخزرجي. صحابي جليل توفي عام ٧١هـ.

(٤) الكسائي معروف عالم لغوي. وعمرو: هو عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه.

(٥) الخليل بن أحمد هو واضع علم العروض.

(٦) ابن أوس هو أبو تمام شاعر معروف وكذلك البحتري.

تسليم على الماضي

يستجيب القلم حينما تريد منه تسطير ذكريات من الماضي. أو تحبير وقفة على الأطلال. أو ما إلى ذلك مما تحلم به الخاطرة.. وكأنما لسان حاله يقول لصاحبه امض حيثما شئت.. واكتب عن واقع الحال. وعن تصورك لما يأتي به الزمان. ودع عنك شيئاً قد غاص تحت ركام السنين. فالرجوع إلى الورى قد يثني قوادم جناح الخيال الذي يستشرف الأشياء التي يدركها العقل في يومك فيصبح وقوفك على الأطلال. وندبك أمسها الغائب كمن أراد السفر فحضر إلى محطة القطار. وهناك انشغل بالنظر بما لا يمت إلى رحلته بصلة. ففاته القطار وهو يقلب نظره في منشآت تلك المحطة.

والحقيقة أنها استجابة مشوبة بالخوف من أن يكون الإيغال في الماضي وذكرياته سبباً للغفلة عن واقع الحاضر وأحداثه. ولهذا فإن لسان حال خوفه من ركوب موجة الماضي يوحي بأن يكون هناك توازناً لدى الكاتب. والشاعر فلا يطغى لديه ماض على حاضر. ولا حاضر على ماض. لأن طغيان الحاضر على الماضي نفس بنيوي. والوقوف على الماضي دون الدخول به إلى الحاضر فيه من طبيعة التحجر أو رائحة الرجعية..

وحتى لا يجرنا الحديث إلى الدخول في فلسفة البنيوية والرجعية وفي مجالات العقيدة والأدب والسياسة. أرى أن أتوقف عن الحديث مكتفياً بما جاء على لسان حال القلم. وعلى لسان الخوف فيما تقدم. ولأجعل ختام هذا الموضوع أبياتاً من قصيدة للشاعر أبي جعفر محمد بن

الحسين بن سليمان. الذي وصفه الثعالبي بأنه كان له محل من الشعر وتصرف في القضا ببلاد خرسان.. والأبيات هي من قصيدة طويلة استهلها بذكر الشيب وأفاعيله. والزمان وأهله. وختمها بالتسليم على الماضي الذي كان فيه قوياً على أداء العبادة وقراءة القرآن. والقيام بتأليف الكتب. والنشاط الفكري الدائب. وذلك بقوله:

أقول وللدمع في وجنتي
سوابق قطر له مستهل

سلام على طيب عيش مضى
وأنس بإخوان صدق نبل

سلام على قوتي للقيام
إلى الفرض في وقته والنفل

سلام على الختم في ليله
بقلب كئيب حليف الوجل

سلام على الكتب ألفتها
ووشحتها بصحاح العلل

سلام على مِدَح صغتها
وحَبّرْتها في الليالي الطول

سلام امرئ ما اشتهى لم يجد
وما رام مجتهداً لم ينل

أناب إلى ربه تائباً
ومستغفراً للخطا والزلل

○○○○○

هل تقريظ الكتاب يكون قبل أو بعد تداوله؟!!

وقبل أن أشير إلى خاطرة هذا الموضوع. أرى أن أتوقف قليلاً حول تقريظ الكتاب أو كتابة مقدمته فأقول: في الزمن السابق قل أن يكتب التوطئة قلم غير قلم مؤلفه. وإن حصل ذلك فهي شهادة طبيعية بإجازة الكتاب واستحسان محتواه من قبل الموطئ له. لكن الشائع لدى القدامى. هو أن يحصل التقريظ للكتاب أثناء وبعد تداوله. وكثيراً ما يكون التقريظ تعبيراً عن الإعجاب بمادته.

أما في زماننا هذا فإن مقدمة الكتاب والتقريظ معاً. ما هما إلّا إعلان دعائي يقصد به الترويج والربح من الدعوة لاقتنائه. لا لجودة مادته وقيمته الأدبية.

روى صاحب كتاب «نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة» محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي المولود عام ١٠٦١هـ والمتوفى عام ١١١١هـ. أن يوسف بن علي الهادي الكوكباني المتوفى سنة ١١١٥هـ ألف كتاباً سماه: «طوق الصادح المفصل بجوهر البيان الواضح». وبعث به إلى السيد الحسن بن عبد القادر بن الناصر بن عبد الرب المتوفى سنة ١١١٠هـ فلما اطلع عليه أعجب به إعجاباً شديداً. ثم أعاده مشفوعاً برسالة نثرية. ومذيلة بأبيات شعرية قرظ بها ـ طوق الصادح ـ بقوله:

هذه الأبيات في تقريظ ـ طوق الصادح ـ الذي يدخل حصر أوصافه تحت طوق المادح.. ثم ساق الأبيات التي منها قوله:

لعمرك ما الروض الموشع بالزهر
ولا طلعة البدر الذي حُفَّ بالزُّهر

ولا الحور قلَّدن النحور قلائداً
تُضيء من الدر المفُصّل بالشذر

ولا ابن ذُكا يا ذا الذكاء ولاولا
بأبهج من هذا الكتاب بلا نُكر

لقد أطربت ألفاظه كلَّ سامع
فيا من رأى طوقاً له نغمةُ القمر

ومنها قوله:

ولا عيب في ألفاظه غير أنها
غدت لأُلي الألباب تَنْفُث بالسحر

على كتب التاريخ يفضل يا فتى
كما فضلت شمس النهار على البدر

فما يُجتلى وجهُ «الخريدة» بعده
وذل به قدر «اليتيمة» في الدهر[1]

ويختمها بذكر اسم صاحب الكتاب بقوله:

وإن هبطتْ مصر البلاغةِ عصبةٌ
فيوسف قد أضحى العزيز على مصر



(١) في البيت إشارة إلى خريدة القصر للعماد الأصفهاني.. وفيه أيضاً إشارة إلى كتاب «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي.

النظر في بطون الأمور وظهورها مطردة لليأس!!

يهتز كيان الإنسان عندما تثقل كاهله مشكلة اجتماعية. فيظل في صحبة الخوف من اشتدادها وتعسر حلها.. وإن هي زالت فإن الخوف من عودتها يكون ملازماً له طيلة حياته، والعامة في بعض نواحي نجد كمنطقة سدير تقول: من ذاق الغنى عقب حاجة.. يموت وفي قلبه من الفقر هاجوس. أي الفقير إذا ما اغتنى فإنه لا يزال يذكر الفقر ويتخيل شبحه. وعليك أن تتصور مريضاً أشرف على الموت ثم شفاه الله وعادت إليه صحته وعافيته. فإنه لا ينسى ذلك المرض. بل إنه يأخذ في تجنب مسبباته إن كان قد عرفها.

وعقلاء الناس يشتد خوفهم من تقلبات الزمان وتغير الأحوال كلما عمتهم النعمة وازدادت معائشهم بسطة. واتسعت نواحي أرزاقهم. لأنهم يدركون أن ما بعد اليسر إلّا العسر وإن اكتمال الشيء ما هو إلّا إيذان بزواله.

أما إذا كانوا في سوء حال فإن نفوسهم تسكن مطمئنة خلف الأمل الذي يخلف الظن حيث الاعتقاد الجازم بأن ما بعد العسر إلّا اليسر.

والحكماء يقارنون بين الأشياء ويقيسون بعضها ببعض. ويشبهونها بما يمرون به من أحوال. وبما يشاهدونه من نظام الكون وتقلبات أحوال الطبيعة.. فهم إن كانوا فيما يشبه الليل فهم يترقبون زواله بقدوم النهار وإذا كانوا في حال تشبه الليالي المقمرة فإنهم يدركون بأنه سيأتي عليهم ليال يفتقدون فيها القمر.

وعلى هذه الوتيرة مما يعايشه الناس من ظروف تمضي الحياة.

والسعادة والشقاء. والمرض والصحة والعلم والجهل. والغنى والفقر يتناوبان كل حي فيها. ففرحة تتحقق. وبؤس يطوي بساطها. وهكذا دواليك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. وقد وصف الشاعر أحمد بن محمد الحسني الحلبي المعروف بابن النقيب المتوفى سنة ١٠٥٦هـ جانباً من هذا الواقع الحياتي في أبيات منها قوله:

رويدك شأن الدهر أن يتغيرا
وشيمته إما صفا أن يُكدَّرا

وعادته الشنعاء في الناس أنه
إذا جاء بالبشرى تحوّل منذرا

فلا بؤسه يبقى وأما نعيمه
فكالطيف إذ تلقاه في سنة الكرى

فلا تك مسروراً إذا كان مقبلاً
ولا تك محزوناً إذا هو أدْبرا

فأيُّ دُجى همّ دهاك ولم تجد
صباحاً له بالبشر وافاك مسفرا

وقد هزلت أيامنا فلو أنها
أتتنا بجد كان للهزل مصدرا

وليس يعيب البدر فقدان نوره
إذا كان بعد الفقد يظهر مقمرا

وما جُعَليٌّ إن جفا الورد إذ به
أضَرّ بداع أن يذمّ ويهجرا



السبب في عدم ذكر اسم المُحَب!!

أذكر أنني أشرت إلى تعمد الشاعر عدم ذكر اسم محبوبته في موضوع تقدم في أحد أجزاء هذا الكتاب. وبينتُ بعض الأسباب التي تحمل بعض شعراء الغزل على عدم ذكر اسم من يشبب بها أو يتغزل فيها.

وفي هذا الموضوع أرى أن من بين الأسباب التي تحول دون الشاعر وذكر اسم محبوبته الخوف الذي يتفرع منه. اعتبار التشبيب بالاسم الصريح إساءة تأتي من باب أن الشاعر كان على علاقة بمن شبب بها.. وبالتالي يأتي الفرع الثاني من الخوف وهو غضب أهل أو قوم التي شبب بها. ذلك الغضب الذي ربما يمسه بسوء ومكروه.. ولات حين ساعة الندم.

أما الخوف من الواشي الذي يتسبب في قطع الصلة بين الشاعر ومحبوبته بأساليبه الوشائية التي يغزو بها قلب من أحبها. فتتحول من الوداعة والرقة واللطافة. ومبادلة الحب بالحب إلى قساوة تترع بها سلوك الكراهية. فتعتبر ذلك التشبيب مجرد ادعاء في شكل قصيدة تحطم الأخلاق. وتفتح نافذة للرذيلة من خلال ما تحتوي عليه من التذلل المقابل لوصف المفاتن الجسدية. فإنه هم شعراء الغزل وهو أخطر ما يخوفهم لأنه متى ما فسدت الصلة بينهم وبين محبوباتهم مات سلطان العشق في نفوسهم وغاب ملهم الشعر عن مخيلتهم.

ومن الشعراء الذين أعلنوا بكل صراحة بأنهم لن يذكروا أسماء محبوباتهم: الشاعر السيد عبد القادر بن الناصر بن عبد الرب المتوفى سنة ١٠٩٧هـ حيث يقول في مطلع أبيات له:

قد طار قلبي إلى من لا أسميه
وإن تناسى الوفا فاللّه يحميه

وكأني به يقول بعد هذا: طالما أني لم أذكر اسمها. فلماذا أتكتم على حبها. ولا أذكر أوصافها التي يكون في ذكر ما يحسن لعيني منها راحة. وتبديد معاناة. يقول:

مهفهف ماد من تيه ومن جذل
فكاد قدّ قضيب البان يحكيه

بدر تكاد بدور التم تشبهه
والظبي حاكاه لكن لا يساويه

ذو مقلة يعرف السحر الحلال بها
قلبي بها يتقلّى في تلظيه

كم أكتم الحب في قلبي وأضمره
لكن مدامع عيني ليس تخفيه

أبيت أرعى نجوم الليل منزعجاً
ألتاع شوقاً وفي قلبي الذي فيه

لي نار وجد وأشواق أكابدها
للّه قلبي فيه كم يقاسيه

البرق يذهله والريح يُدهشه
والشوق ينشره والوجد يطويه



المسئولية مشتركة

في وجود العمالة بهذه الكثرة!!

ما من شك من أن البلاد الغنية تتهافت عليها العمالة من كل مكان في الدنيا. وكأنما هي ـ وأعني بذلك البلاد الغنية ـ مغنم يجب أن يضرب فيه بسهم. وأن يكون الوصول إليه هدفاً رئيسياً وبأي طريقة كانت سواء كانت نظامية أو لم تكن.

ونحن إذا ما سألنا عن العمالة التي نشهد تواجدها في بلادنا بشكل ملفت للنظر من حيث الكم الهائل من مختلف الجنسيات حتى أصبحت في مجموعها تفوق احتياجنا بأضعاف مضاعفة. لبرز الجواب في صورة مهزورة يتحمل المواطن مسئولية تشويهها.. وحينما أقول المواطن.. فإنني أعني.

أولاً: المواطن الذي يستقدم عدداً من العمال لظرف ما ثم يتساهل في ترحيلهم. مستجيباً عند الاستغناء عنهم لدافع العاطفة أحياناً فيدعهم يعملون على حسابهم الخاص ولحدة الطمع أحياناً أخرى فيتستر عليهم مقابل شيء من المال.

وثانياً: المواطن الذي يفضل الراحة مع شظف العيش على العمل وكأنه في حساب المقعدين.

والشباب تقع عليهم مسئولية كثرة العمالة المتميزة مهنياً. والتي يكثر وجودها في المصانع والورش وما إلى ذلك مما يتطلب عمله أيد فنية.. وحينما أقول تقع عليه المسئولية. فلأنني أراه لا يُقبل على

مزاولة الأعمال المهنية الفنية لنفسه أو لدى الغير. وإنما همه وشغله الشاغل هو العمل في وظيفة حكومية مكتبية لينسى بذلك ما قد قضى جزء من حياته في دراسته واجتهد في التخصص فيه حتى مهر فيه وحقق النجاح في ممارسته. وقضية العمالة الوافدة إلى بلادنا. ومسؤلية المواطن المتسبب في وجودها. وعزوف الشباب عن القيام بالأعمال المهنية التي تمارسها.. تحتاج إلى وعي وتبصر يكون أساسه الحرص على مصالح البلاد والمحافظة على مواردها بعدم تسربها إلى الخارج عن طريق العمالة التي لا تألو جهداً في امتصاص اقتصادنا بشتى الوسائل.

ولقد نبه الشاعر عبد المجيد محمد العمري إلى جانب من هذه القضية في قصيدة جعل عنوانها «الشباب أحق في أعمالنا» منها قوله:

يا إخوتي إن العمالة حجمها
عدد يحقق رغبة الأعداء

يا إخوتي إن التعاون واجب
وبه اكتساب العز والعلياء

ومنها قوله:

يا إخوتي إن التكاسل ساحة
للجهل للتقصير للضراء

إن المصالح إن جلت عن أهلنا
سنرى الغريب يعيش في نعماء

إن البطالة إن بدت في قومنا
تُنبيكموا عن كثرة الغرباء

ومنها قوله:

إن الشباب أحق في أعمالنا
حتى نكون بمأمن وهناء

إن المصانع تشتكي من فقدهم
من بُعْدِهم في حيرة صماء

إن المتاجر تشتكي من بعدهم
من هجر أبناء لها أمناء

والقصيدة طويلة فهي تبلغ ٣٠ بيتاً وقد نشرتها جريدة الرياض في عددها ١٠٠٥٨ يوم الأحد ١٦ شعبان سنة ١٤١٦هـ.



شاعر يحث أمته على مواكبة يقظة الدهر

وكم من الشعراء من يكرس طاقاته الفكرية والشعرية للوعظ. فيلمس بقصائده الإنذارية غفلات أمته. وينبهها إلى تقصيرها في شؤون حياتها العامة.

والشاعر الواعظ كثيراً ما يصف حالة تراخي أمته عن ممارسة عاداتها الحميدة. وعن أداء واجباتها وما هو مفروض عليها عمله، بالنوم، وبالغفلة، وبالتهاون.. لذا فهو يصرخ في آذانها بقصد إيقاظها من نومها. صرخات تذكر بأن الدهر يقظان. وأن عليها الحذر كل الحذر مما يصحب يقظته من المفاجآت. ومن المصائب التي تورث الهم. والغم في النفوس.

يقول الشاعر ناصر بن سليمان القاروني:

أيـهـا الـنـائـمـون والـدهـر يـقـظـا
نُ أصـاحـونَ أنـتـمُ أم سُـكـارى

وبعد هذا العتاب على طول النوم الذي يشبه السكر. يطالبهم بأن يهبوا من نومهم قبل أن يباغتهم المنون:

طـالـمـا نـمـتـم فـهـبـوا مـن الـنـو
م فـداعـي الـمـنـون يـدعـو جـهـارا

ويذكرهم بأن المنون داعٍ مفاجئ يسقط كل التسويفات.

هـو داع إذا أهـاب بـمـن فـي
رأسـه نـشـوةٌ أطـار الـخـمـارا

والمنون ليس بالداعي الذي يغض عمن لا يسمعه أو يغفل عما لا يجيبه. وإنما هو داعٍ يكره على إجابته فلا خيار لدى من يدعوه:

هــو داع يــجــيــبــه مــن دعــاه
كــارهــاً لــلــقــاء أو مــخــتــارا

ثم يقول بعد ذلك: من كان يجهل أفعال المنون فلينظر في تاريخ من سلف ليرى أفعاله ظاهرة فيما انتهوا إليه:

هــوذا مــنــزل الــمــلــوك بــرغــم
لــرغــام مــن الــصــيــاصــي اقــتــسارا

هــو ذا مُــكَــسّــرٌ عــظــم كــســرى
ومــديــرٌ رحــى الــمــنــون بــدارا

وبعد هذا الاستعراض لأفعال المنون يعود الشاعر الواعظ إلى الطلب إلى أمته بالمبادرة للأعمال الصالحة. وفعل الخيرات. وانتهاز الفرصة التي لا يكون للمنون فيها مواجهة.

فــبــداراً لــيــوم عــيــش عــزيــز
قــبــل أن يُــذيــع الــرحــيــلُ بــدارا

وانــتــهــازاً لــفــرصــةٍ لــيــس تــبــقــى
قــبــل أن تُــسْــلــبــوا عــلــيــهــا الــخــيــارا

○○○○○

معرفة الممدوح من خلال أسلوب المادح

وإذا كان واقع الحياة الاجتماعية يعطينا دليلاً ملموساً على أن الناس طبقات متفاوته. وأن مراتبهم تختلف في العلو اختلافاً كبيراً فلو أننا قسناها بقصد المقارنة على درجات السلم لرأينا فرقاً كبيراً في المسافة في العلو ما بين الزلفة السفلى والزلفة العليا من السلم، وكذلك الشأن بمراتب الناس وبخصائص خصالهم. بل وبقوة شخصياتهم وضعفها.

وحتى مراتب الدنو.. فهي مختلفة اختلافاً واضحاً كاختلاف الوحل عن الضحل. والطين عن الغرب.

أما أصحاب المراتب العالية فإنه يكون لهم لدى الآخرين تقديرات بحسب علو المراتب وتدنيها. ويكون لهم بهذا الحسب هيبة تمنحها لهم مراتبهم التي تكوّن منهم شخصيات يحفها الوقار والعظمة. فيصبح مثلاً أسلوب التحدث إليهم مختلفاً عن التحدث إلى غيرهم. إذ أن التحدث مع صاحب المرتبة العالية يأخذ طابعاً مميزاً بحيث يحتاج إلى عبارات منسقة تتفق ومقامه. فهو لا يرضى أن يخاطب بما يخاطب به عامة الناس. ولا أن يجادل بالصوت المرتفع الذي يجادل به عامة الناس. إذ لا بد أن يمتزج الحديث معه بالأدب حتى في الإشارة ونبرات الصوت... وقد ينشأ مما تقدم سؤال يقول: كيف نكتشف. أن من سبقونا من أصحاب المراتب العالية قد خصوا بأسلوب خاص في التحدث إليهم؟. والحقيقة أن البحث عن تحقيق ذلك متوفر.. وهو في الأسلوب الشعري ربما كان أوضح وأكثر، وهذا ظاهر في مدائح

الشعراء. بل إنك لتقرأ القصيدة الخالية من اسم الممدوح فتعرف مرتبته من خلال المفردات والعبارات والأوصاف.. أهي عالية أم متوسطة. أو متدنية. فلو قرأ أحد علينا هذه الأبيات:

بطل رقى درج الفخار فلم يدع
فيها لراق بعده من مطمع

وتناولت كفاه أشرف رتبة
لو قام يلمسها السها لم يَسْطع

أندى من الغيث الملث إذا اجْتُدي
أحمى من الليث الهزبر إذا دعي

التارك الأبطال صرعى في الوغى
فكأنهم أعجاز نخل منقع

يذرُ الجماجم في المكرّ سواقطا
سقط الثمار من المهب الزعزع

يا ابن الأُلَى جعلوا مراكز سمرهم
حَبَّ القلوب بكل يوم مفظع

واستبدلوا للبيض من أغمادها
في الحرب هامة كل ليث أروع

النازلين من العلى في رتبة
هام السها منها بأدنى موضع

لما ترددنا في القول بأنها امتداح في ملك وأعني الأبيات وهي من قصيدة للشاعر أبي البحر جعفر بن محمد بن حسن الخطى البحراني العبدي المتوفى سنة ١٠٢٨هـ، وقد امتدح بها وزير البحرين ركن الدين محمد بن محمود.

عيد الفطر صادف الاشتغال بهذا الجزء

لقد حل عيد الفطر المبارك لعام ١٤١٦هـ، وأنا أشتغل بكتابة موضوعات هذا الجزء فكان من الواجب عليّ أن لا تمر هذه المناسبة دون أن يكون لها موضع بين موضوعات هذا الجزء. وها أنذا قد أمسكت بالقلم. وأمامي كماً من الصحف والمجلات التي زخرت بالعناوين الشيقة التي تترجم موضوعاتها معاني العيد. وتنقل مشاعر المسلمين الذين وفقهم الله لصيام شهر رمضان المبارك. وقيام ليله.

ولعلي أستعرض بعضاً من موضوعاتها في مقالة لاحقة إن شاء الله.. أمّا في هذا الموضوع فقد شد انتباهي عنوان لقصيدة قالتها الشاعرة إنصاف علي بخاري وهو: «عيد وأقصوصة فتاة لم تكتمل» وبقراءتها أستطيع أن أصفها بمنظومة قصصية ترجمت فيها الشاعرة إنصاف مشاعر فتاة تصورتها في أصدق تصور وهي تناجي عدداً من صديقاتها في كل مكان من العالم الإسلامي المترامي الأطراف وتتحسس مشاعرهن بعبارات تطل من خلالها على خلجات نفوسهن. فتجد من بينهن من قد سعدت بالعيد ومباهجه. وهذه التي سرت بالعيد لم يكن بالطبع بلدها الشيشان ولا القدس. ولا البوسنة. ولا إريتيريا. ولا كشمير.. أما الفتاة التي استاءت بقدوم العيد. حيث أن العيد لم يستطع بما فيه من تسامح وأفراح ومظاهر تعانق فرحتها ضياء الفجر الذي يستيقظ على تهليل وتكبير الكبار. وزغردة الصغار وأناشيدهم.. على حل مشكلاتها. أو تخفيف جزء من آلامها التي زرعها في نفسها أعداء دينها الحفيف.. الذين لا يتورعون عن البطش والظلم. والاعتداء السافر الذي يتفطر الأكباد من ممارسته بطباع الحيوانات الشرسة.

أما القصيدة القصصية فطويلة وذات مقاطع فهي تبلغ نحواً من ١١٨ بيتاً.. من أبيات أحد مقاطعها قولها:

أعـيـد فـي ديـاجـي الـقـهـ
ـر لـيـت الـعـيـد مـا كـانـا

بـحـضـن الأم يـلـقـى الـنـا
س أخـبـيـة وأكـنـانـا

وحـضـن الأم يـخـنـقـنـي
أيـروي الـجـدب ظـمـآنـا

دعـيـنـي الآن صـاحـبـ
ـتـي غـدا الـمـسـتـور عـريـانـا

خـذي الأفـراح وانـطـلـقـي
فـهـمـي صـار إدمـانـا

أنـا لا أشـتـهـي لـعـبـا
ولا أشـتـاق فـسـتـانـا

ولا أبـغـي بـهـذا الـعـيـ
ـد «عـيـديـة» وقـربـانـا

أنـا أشـتـاق أصـرة
تـلـف قـرى وبـلـدانـا



وصف قصيدة!!

من المعلوم أنه يجري بين الشعراء مراسلات شعرية تترجم مشاعرهم حيال بعضهم البعض بصفة عامة.. وحينما أقول بصفة عامة. فإن ذلك يعني ترجمة المشاعر بما يخالج النفس من ودّ وكراهية.. فبعض المراسلات لا تقوم على تبادل مشاعر الود وإنما تكون عبارة عن تهاجي. وتشاتم فيما بين المتراسلين. وبعضها يكون بوح بما تكنه ضمائرهم من ودّ قائم بينهم...

وهناك رسائل غرامية قد يكون بعضها متبادلاً. إلّا أن الأكثر من هذا النوع يكون من الشاعر العاشق.

وكتب الأدب. ودواوين الشعر مليئة بجميع أشكال المراسلات وعلى مختلف المستويات الشخصية... وحيث أن المجال لا يتسع لاستقطاب نماذج من جميعها أو حتى بعضها. ولأن الصفة العامة لكثير من المراسلات تأتي في صورة نقائض أو تبادل آراء. أو إبداء مشورة. وما إلى ذلك من الأغراض التي فرضتها المراسلة.. ولهذا فإن بعض الرسائل التي تأتي متميزة عن تلك الأغراض وخارجة عن هذا المألوف يكون لها نكهة متميزة وطعم خاص. وذلك كأن يأتي الرد على رسالة شعرية بالإشادة بشكل الرسالة لا بمرسلها ووصفها بما يتفق وحالتها التي وقعت من نفس المرسلة إليه... من هذا اللون ما أجاب به الشاعر عبد اللطيف المعروف بأنسى المتوفى سنة ١٠٧٥هـ، قيل: إنه تولى عدة مناصب قضائية في مكة، وطرابلس، ومصر، وفي الشام، وأزمير، وفي سيروز، وإيوار تلك الإجابة التي جاءت رداً على رسالة

شعرية بعث بها إليه مفتي الشام عبد الرحمٰن العمادي واسمه شهاب الدين عبد الرحمٰن بن محمد بن محمد العمادي الدمشقي الحنفي المتوفى سنة ١٠٧٨هـ، وقد استهلها بقوله:

مولاي أُنسي الذي طابت طرابلس
به وأصبح فيها الوحش في أنس

فكانت إجابة أُنسي وصفاً لتلك الرسالة كما أسلفت.. منها قوله:

هذا كتابك أم ذي نفحة القدس
يا طيّب الله زاكي عرفِ ذا النفس

فقد حلا كلما كدّرتُه بفمي
كأنه أشنب قد جاد باللعس

كأنما كلُّ سطر مفعم أدباً
غصن توقّره الأثمارُ لم يمس

كأنهن المهارى وقرها دُرر
وفي سوى القلب والأسماء لم تطس[1]

نظم بديع جناس الالتفات حلا
منه فبالله هذا ظبية الأنس

مخائل السحر تبدو من دقائقه
كاللحظ أجفانه مالت إلى النعس

لنا به كل وقت عن سواه غنى
في طلعة الشمس ما يغني عن القبس



(١) لم تطس: أي لم تحسن.

بعض الأغزال كالماء الزلال!!

والشعر الغزلي لا يأتي على نسق واحد. بل. ولا بأسلوب واحد. فهو يختلف من حيث الجودة، والقوة، وحسن الصناعة، بما فيها من تأوه، وتشكي، وتظلم، وترجي، وأوصاف بلاغية ترقص المشاعر بالدعوة إلى عصيان العذال.. وبنقل صورة التذلل للمحبوب وما إلى ذلك من أساليب التزلف.. وذلك اختلاف طبائع المتغزلين، وسلوكياتهم، ومدى مقدرتهم على التعبير عما يداخل نفوسهم من شوق. وحب.. تتجلى في وصفه أخيلتهم فينطق الإبداع في وصف المعاناة وعدم احتمال الفراق. وساعات الوداع. وما إلى ذلك مما يمليه واقع الحب على المحب. وهو ـ وأعني بذلك الشعر الغزلي ـ يأتي من بعضهم في أبهى صورة. وأوضح معنى. وأدق تعبير وألطف أسلوب.. فلا يسعنا إلّا أن نصفه بالسحر الحلال. بل هو بالنسبة للقارئ المتذوق لهذا اللون من الشعر. أشبه ما يكون بالماء الزلال.

ويأتي من بعضهم مصحوباً بالجفاف ومنعدمة فيه روح الرقة. بل إن كل ما فيه ما هو إلّا مجرد عبارات وصفية يظهر عليها عامل الحشو ظهوراً يخلو من اللطافة. ومن عذوبة الكلمة.. والسر في ذلك يرجع فيما يبدو لي إلى مصداقية الشاعر في التعبير عن واقع حاله من الحب الحقيقي لا الادعائي الذي يمتطي خيالاً سلبياً يعكس عدم وجود معاناة حقيقية. فتأتي عباراته الغزلية مقسورة في أسلوب يظهر عليه التكلف. وينفر منه القارئ نفوره من شرب الماء الكدر.

ولو اتفق لنا أن نسأل هذا الشاعر عن أسباب برود كلماته وفتور

عباراته. لتبين لنا أنه لا يخاطب شخصاً حقيقياً معيناً. وبالتالي ندرك أسباب جفاف العبارات التي من عادتها إذا كانت من محب صادق في الحب تأتي جارية نحو المحبوب جريان الماء العذب الذي يبل أكباد العشاق ويطفي لهيب قلوبهم ومن صور الأغزال الشبيهة بالماء الزلال. هذه الصورة التي وصفها الشاعر عيسى بن حسين بن شجاع النجفي في مقدمة لقصيدة امتدح بها النظام بن معصوم. منها هذا الذي يترجم الأشجان ويصف الشوق بما يذوب على اللسان:

أغالب أسقامي وأسقامها لها
ومن غالب الأسقام فالسقم غالبُ

إذا برزت فالناس فيها ثلاثة
طعين. ومضروب. وساهٍ يراقب

ولم يُر عَسَّالٌ سوى قدِّ بانة
وليس لها إلّا الجنون قواضب

وإن أسفرتْ ليلاً جلى الليل وجْهُها
وخرت له خوفَ الكسوفِ الكواكب

وإن طلعت يوماً فللشمس ضرة
عليها من الجعد الأثيث غياهب

ومن عجب للشمس والبدر مغربٌ
وليلي لها كل القلوب مغارب

إذا ما النوى زمّتْ ركاب أحبتي
فللشوق في قلبي تجول ركائب

ولُبّيَ مسلوب وجسمِيَ واهن
ودمعي مسكوبٌ وقلبي واجب

خيال الشاعر في الترجمة..
أفصح من الرسام وكاتب القصة!!

يتسامى خيال بعض مرهفي الإحساس في هدأة الليل في كثير من الأحيان نحو أبعد أفق تلحق مداه الرؤية. ومن ثم يجلب لصاحبه من الأشياء التي يراها توقظ في نفسه أحاسيس التأمل. حتى إذا اكتملت قوى الأحاسيس وتهيأت قوى التدبر. أوحى للمشاعر بتجهيز ريشة الرسم والألوان. ثم طار بتلك المجموعة التي أيقظها. وأشبعها حماساً وتلهفاً إلى حيث يكون مصدر الإيحاء.. وهناك يأخذ في رسم المشاهد التي يقف النظر عليها.

وأكثر من تحلق أخيلتهم وتتسامى إلى بعد تقصر دونه الأخيلة العادية.. هم القصاصون والشعراء. وإن كان بينهما فرق من حيث ترجمة الصورة التي تتلقاها أخيلتهم المتميزة. والتي ربما اشترك معهما الرسام في استنطاق الصورة الصامتة.. فليس بالكبير. فالقصاص مثلاً أكثر ما يكون إنتاجه تصوراً لحالة اجتماعية يساهم الخيال القصصي في إخراجها وذلك باستنطاق شخصيات وهمية تتداخل آراؤها. وتأخذ في التقاول حتى يصل بها إلى نقطة النهاية التي يهدف إليها.

أما الشاعر فهو إلى جانب ذلك في بعض الأحيان. يغزو بخياله وجه الطبيعة فيرسم الصورة بلا تقاول وكأنما هو شاهد عيان يقف بك على ما يحدث. أو يصف لك ما رآه.

والشاعر حينما يرسل نظره خلف خياله مثلاً.. نحو السماء في الليل فإنه عندما تكون السماء صافية يرى النجوم التي مكّنَتْهُ من الإحاطة

بأسمائها. ومعرفة كل منها بشكله وهيئته فإنه يأخذ في تشبيهها بما هو مشاهد على الأرض مشاهدة طبيعية لدى كل الناس. وذلك مثل ما جاء في قصيدة مصطفى بن عثمان البابي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩١هـ، وهي السنة التي حج فيها فتوفي بمكة. من تلك القصيدة التي اتكأ فيها على أداة التشبيه ـ كأن ـ قوله:

كأن تعالى الله ذا البدر في السما
مليك مطاع والنجوم له جندُ

كأن سماء الليل روض مُنَمّق
خمائله مسك أزاهره ندُّ

كأن الدجى والبرق والزُّهْرَ ناهد
من الزنج يُزهيها فيضحكها العقد

كأن الثريا كف نقّاد استوى
على نطع سَبْجٍ فوقه نثر العقد

كأن نجوم الليل من حيرة بها
ركائبُ تسرى ما لها في السرى قصد

كأن وميض البرق في حالك الدجى
صفاءٌ بقلب قد توطّنه الحقد

كأن السُّها معنى دقيق بفكرة
فآونة يخفى وآونة يبدو

كأن الدجى والفجر يفتق زِيقه
مواطن غيٍّ قد أناخ بها الرشد



ثنائيات في أعجاز أبيات!!

تنداح الرؤية لدى بعض الشعراء المتمكنين عندما يعن له صناعة قصيدة يعرض فيها شيئاً من آرائه فتتسع أمامه الأفق الشاعرية. وتهبط إلى قلمه المفردات الجميلة والمعاني العذبة.. ويحلق به الخيال في الاتجاه الفكري الذي يعضده الحس الإيحائي الذي يحدد مركز قطب القصيدة. فيمضي ساجدة له كواكب المعاني ونجوم البلاغة. فيختار منها ما يتفق والموضوع الذي قرر بلورته في قالب من الشعر.

وإذا ما كان اتجاه الشاعر نحو صنع حكم في قصيدة. أو قصيدة في حكم. فإنه في بعض الأحيان وبحكم مقدرته. يأتي ببعض القصائد التي رصد فيها ما خطر على باله من الأقوال الحكيمة ملونة تلوناً عجيباً حيث تنقاد له الأساليب الشعرية طائعة فيصرِّفها كيفما شاء تصريفاً تصبح معه متسقة أيما اتساق.

ومن عجائب تلاعب الشعراء بأساليب الشعر وأدواته وأغراضه. أن بعضهم ينشئ أبياتاً أو قصيدة أو أكثر من قصيدة فيجعل أعجاز أبياتها تشتمل على ثنائيات لا تخرج عن إطار أمثال الحكمة حيناً وحيناً في مقارنة الأشياء وتقابلها مع بعضها البعض. أو في تباعدها وتضاددها وتنافر بعضها عن بعضها الآخر. وذلك مثل قول الشاعر. الشهاب من قصيدة امتدح بها السلطان مراد أحمد حين غزا العجم عام ١٠٤٤هـ:

لو فاخرته ملوك الأرض قاطبة

ما نالهم من معاني فخره العُشُرُ

هل يستوي الشمس والمصباح جنح دجى
ويستوي الجاريان البحر والنهر

بدا له في سماء المجد نورُ هدى
من دونه النّيران الشمس والقمر

وأصبح الملك محروسَ الجناب وقد
وافى به المسعدان القَدْرُ والقَدَر

والمتنبي له في مثل هذا السبك الشيء الكثير.. أما الذي أعجبني من هذا الأسلوب فهو قول الشنتريني واسمه: أبو محمد عبد الله بن محمد بن صارة. أو ابن سارة الشنتريني وشنترين مدينة متصلة بأعمال باجة في غرب الأندلس.. كما جاء في معجم البلدان وقد توفي الشنتريني سنة ٥١٧هـ.. من قوله الذي أعجبني منه الثنائيات التي اشتملت عليها أعجاز أبياته. قوله:

ومن يصيخ إلى داعي السفاه وقد
نادى به الناعيان الشيب والكبر

إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم ثوى
في رأسك الواعيان السمع والبصر

ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل
لم يهده الهاديان العين والأثر

لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الْـ
أعلى ولا النّيران الشمس والقمر

وللأبيات بقية موجودة في جـ٣ من كتاب «نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة» للمحبي.



دموع العشق فضاحة!!

والحديث عن العشاق ودموع العشق التي تفضح من يحاول التستر على عشقه. يطول ويتشعب تشعب الظروف التي تسببه.. وتنوع المؤثرات التي تدل عليه وعلى ما وصل إليه من درجات الحب التي قيل: إن الهيام هو أشدها وأقواها تأثيراً على النفس.. قلت: إن الحديث عن ذلك قد تناوله جهابذة الفكر. وعلماء الأدب. والحذاق من أصحاب الأقلام والنقاد. وأطلق كل منهم العنان لقلمه. إمّا واصفاً دمع العشق وتأثيره على النفس والصحة والحياة العامة للعاشق.. أولائما العشاق على استنزاف دموعهم بلا هوادة أو رحمة بأنفسهم.

والوقوف على شعر الشعراء العشاق الذي كتبوه بمداد من أدمعهم التي تمثل المحابر. وألسنتهم التي تمثل الأقلام التي تسطر ما توحي به مهجهم. يعطينا دليلاً واضحاً على أنه مصبوغ بالزفرات وملون بالآهات التي تترجم عمق عشقهم وحجم معاناتهم. ومع هذا فإن في الاستماع إلى أشعارهم لذة.. وفي التنقل بين قصائدهم المشحونة بالإفصاح عن شديد حبهم متعة. حيث نجد ألواناً من الأساليب التي يبدعون فيها.. وأنواعاً من الاتجاهات التي يضمنونها مشاعرهم.. فعن الدموع وما يرمز إليه جريانها. نجد العجب العجاب من ألوان البديع وأساليب البلاغة وفنون المبالغة.. فهذا أحدهم يصف ما يجري بينه وبين محبوبته لحظة الوداع:

لو كنتُ ساعة بيننا ما بيننا

وشهدت حين تكرر التوديعا

أيقنتَ أن من الدموع محدثاً
وعلمتَ أن من الحديث دموعا

ويقول الصفدي في معنى افتضاح السر من قبل الدموع:

يا ما نحي ذلة الخضوع
وما نعي لذة الهجوع

عاقبتني لافتضاح سري
والذنب في ذاك للدموع

وفي موضع آخر لا يرى الصفدي الدمع إلّا وسيلة يطفئُ بها ما في قلبه من لواعج العشق وظمأ الشوق. وسعير الآهات.. أما ما سوى ذلك فما هو إلّا رمز لسوء حظه وتعاسة حياته. وذلك بقوله:

دعوني ودمعي عسى فيضه
به تنطفي نار قلبي المرُوع

فمن شؤم حظيَ في الحب أن
أرى راحتي في انسكاب الدموع

أما الشاعر القيسراني فيؤكد بأن فم اللسان الذي يعبر به عما به من شوق وهوى ما هو إلّا جفنه ومدمعه:

تجاهل صحبي أن بكيت صبابة
عليّ وقالوا ما جرى قلت أدمع

وما عبر الصب الكئيب عن الهوى
بمثل لسان فوه جفني ومدمعي



انسكاب الدم يعقب انهمار الدمع!!

يقول الشاعر عمر بن المطوعي:

بانوا فأمطرتْ الأجفان بعدهمو
من نوء عيني على خدّيّ نوعين
حتى إذا نفضت عيني مدامعها
بقيت أبكيهمو دمعاً بلا عين

ولقد أجاد المطوعي في نقل الصورة التي آلت إليها حالته بعد فراق أحبته أيما إجادة فهو قد شبه دموع حزنه على فراقهم بالمطر. وتوديعهم بالنوء الذي ينهمر فيه ويغزر. لكن هذا المطر الذي جاد به نوء عينه لم يكن من نوع واحد فهو وكما وصفه نوعان:

الأول منهما: هو الدمع وقد ذكره بصريح العبارة.. أما الثاني فقد أبدع في الإشارة إليه وهي إشارة فيها من التأويل اللطيف ما فيها. وعليك أن تتصور دمعاً بلا عين ماذا يكون!!. إنه وبلا أدنى شك إذ فُقد مصدر الدمع فإن الذي يجري ما هو إلّا الدم وهذا غاية في البلاغة والحس.

والشعراء الذين استنفدوا الدمع بالبكاء على الأحبة واستبدلوه بالدماء كثيرون جداً خاصة منهم الشعراء العشاق الذين أطالوا البكاء وتقرحت منهم الأجفان فاستحال الدمع عندهم إلى دم يجري من مآقيهم. يقول ابن قزل:

جرى على الركب دمع عيني
يوم استقلوا بغير عين

وفــاض حــتــى خـشــيــت مــنــه
يــجــول مــا بــيــنــه وبــيــنــي

أما الشاعر الأجاني فقد استغلّ جريان الدم الذي استبدل به الدمع فوظفه توظيفاً اتسم بالرقة والعذوبة. ولطافة التعامل التي وجدها لدى من كان السبب في جريان الدم من عينيه. وذلك في إشارة إلى أن هذا المتسبب كان قصده من إجراء الدم تخضيب بنانه للتجمل يقول:

دَنَــون عــشــيّــة الــتــوديــع مــنــي
ولــي عــيــنــان بــالــدم تــجــريــان

ولــم يــمــســحــن إكــرامــاً جــفــونــي
ولــكــن رُمْــنَ تــخــضــيــب الــبــنــان

وحِرْصُ شعراء الغزل على التفنن في طرح معاناتهم.. يفرض عليهم البحث عن المعاني التي لم تُطْرقَ قبلهم.

والشاعر علاء الدين الوادعي واحد من أولئك.. حيث كان له محاكاة واقتباسات لطيفة في فيضان الدمع واستحالته مع طول البكاء إلى حميم آن. ودم تشققت من جريانه الخدود. وذلك بقوله:

وغــرامــي هــو الــعــذاب ومــا فــا
ضــت دمــوعــي إلّا حــمــيــمــاً آن

ودمــاءٌ مــشــقــقــت ســمــاء خــدودي
فــغــدتْ وهــي وردة كــالــدهــان



المبالغة في وصف نعومة ورقة البشرة!!

ينقب شاعر الغزل عن المفردة حينما يتهيأ لصنع قصيدة أو أبيات يهتف بها في نفسه هاتف الشوق. ليضرب بها في عمق المبالغة ضرباً يدغدغ بها نفسه أولاً.. ويطرب برنينها أذن المعشوق ثانياً: ثم يرسلها في فضاء الأدب ليستمتع بقراءتها كل متذوق للإبداع في أساليب الغزل الذي تجوهره المفردات التي تقطر رقة.. وترصعه المعاني التي تسيل عذوبة.

والشاعر حينما تطير شاعريته بأجنحة من البلاغة والمبالغة. فإنه لا بد أن يحلق في أجواء الأدب بصفة عامة فيصبح علماً من أعلام تلك الأجواء. بل يزيد من عالميته إذا تبلل من أمطار السحب المتلبدة في سماء الغزل. واستنشق روائح أزهار رياضه التي توحي إليه بما نعم ورق منها بل بكل ما حاكى عبيرها وألوانها وتناغم أطيارها من العبارات والألفاظ التي لا تصلح إلّا للغزل وبث الأشواق التي لا يحسن صياغة بثها إلّا الشاعر الغزلي المتمكن الذي قد تغلغل الحب في سويداء قلبه وتملك أحاسيسه ومشاعره.

والملاحظ أن الشاعر الغزلي ترق أحاسيسه إذا اشتد شوقه. وتلطف عباراته. بل تذوب في سحر الشعر فتصير مادة يشكل بها.. بل يجسد بها صورة معشوقته في أرق وأنعم صورة. حتى وإن صف العيون بالسهم الفاتك كقول: السيد محمد الأمين بن السيد فضل الله المحبي:

فلو فوّقتْ سهم المنون جفونه
لقلبٍ سوى قلبي تمنيته قلبي

وعلى الرغم من هذا نجد أن الشاعر يخشى على محبوبته من أن يذيبها النظر حينما يُصَوّبُ إليها وذلك كقول الشاعر أبي تمام:

قــد غــضــضــنــا دونــك الأبـــ
صـــار خـــوفـــاً أن تـــذوبـــا

وكقول الشاعر فتح الله بن النحاس المتوفى سنة ١٠٥٢هـ:

مـــالـــمـــســـنـــاه ولـــكـــن
كـــاد مـــن لـــحـــظ يـــذوب

وكقوله مستهلاً إحدى قصائده:

عــطــف الــغــصــن الــرطــيــب
وتـــلافـــانـــا الـــحـــبـــيـــب
أيُّ عـــضـــو تـــســـرح الأبـــ
صـــار مـــنـــه وتـــؤوب
فـــاتـــقِّ الله وغـــض الـــطـــ
رف عـــنـــه لا يـــذوب

أما الشاعر صالح بن إبراهيم الدّاديخي فقد وصف رقة محبوبته بشكل عام. وذلك بقوله:

عـايـنـتـه وكـأنـه مـن لـطـفـه
راح تـكـاد لـه الـلـواحـظ تـشـرب

وفي مقابل هذا كله يطالب الشاعر فتح الله بن النحاس بالترفق به. وقد شبه نفسه بالزجاجة التي تسبب الأحبة في كسرها:

كـأنـنـي مـن زُجـاجـةٍ جـسـدٌ
أحـبـتـي فـي انـكـسـاره الـسـبـب

الاقتداء بتجدد الأشياء!!

وعندما تستحيل حياة الإنسان بشكل عام إلى حالة لا يرضى عنها أو ينهد جانب من ركن حياته الاجتماعية بشكل خاص.. فإنه إذا لم يستسلم لليأس. ولم يستبدل الكفاح بالدعة. واليقظة بالغفلة. والحركة بالخمول. فإنه سيرمم ما تهدم. ويستعيد ما تهالك من أي جانب من جوانب حياته الاجتماعية.

لكنه ولكي يضمن استعادة ما افتقده من مقومات حياته سواء كان ذلك اعتبارياً أو مادياً وبأي سبب من الأسباب. فإنه يجب عليه الالتفاتة إلى أمثال الحكمة التي يرتبط معناها بما فقده فيأخذ بها. ويترسمها في كل اتجاهاته التي يتحسس من خلالها استعادة ما افتقده. جاعلاً نصب عينيه الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾ [الانشراح: ٥].

وليكن أيضاً على علم تام قبل أن يباشر العمل بأنه ليس من المستحيل تجديد الأشياء التي تتأثر بعامل الزمن. حتى يجد في نفسه عزيمة على استرداد ما ضاع منه مما يلزم لذاته سواء كان مادياً أو معنوياً. وأن عليه الاقتداء بتجدد الأشياء.

ثم بعد ذلك ينظر إلى مثل ما قاله الشاعر فتح الله بن النحاس الحلبي المتوفى سنة ١٠٥٢هـ، لعل فيه ما يشد عزيمته على الصمود أمام ما يصادفه من محن. وعلى مقاوات من يستصغرونه أو يستنقصونه. لكي يظهر على ذلك ويظفر بالنجاح:

فـارقـب خُـفـوقـي إن سـكـنـ

تُ فـعـاصـفـي يُـرجـى مَـهَـبُّـهْ

لا تــنــظــر الــحــسَّــادُ حــا
لــي إنــمــا الــمــنــظــور غِــبُّــهْ

أو مـــا دروا أن الـــحـــســـا
م يُـــغَـــلُّ ثـــم يـــحـــدُّ غَـــرْبُـــهْ

والـــروض يـــذبـــل ثـــم يُـــكْـــ
ـــســـى الـــنّـــوْرَ والأوراق قُـــضْـــبُـــه

والـــبـــدر يـــشـــرق فـــي الـــمـــطـــا
لـــع بـــعـــدمـــا أخـــفـــاه غَـــرْبـــه

والـــداء إن يـــومـــاً يَـــشِـــفَّ
فـــبـــالـــتـــداوي يـــشْـــفِ ربـــه

والـــدهـــر إن يـــؤمَـــن بـــغَـــفْـــ
لٍ لـــذة يَـــفْـــجَـــأْهُ خـــطـــبـــه

لا يـــخـــدعـــنّـــك ســـلـــمـــه
فـــوراء ســـلـــم الـــدهـــر حَـــرْبُـــه

تلك نظرة أملت على النحاس التنبيه بأن لا يستغل أحد ضعفه فإن من بعد الضعف قوة.. كما أوجدت لديه قناعة بأن لا يجعل لليأس سبيلاً إلى نفسه. وأن يدرك بأن استعادة ما يفقد ما هو إلّا كتجديد المادة التي تتأثر بفعل استخدام الإنسان لها أو بعامل الزمن كما أسلفت.



ما هو الأفيون؟ والجسم بعدهُ كيف يكون؟!!

والأفيون فيما ذكر عنه أنه قديم... قال الدكتور محمد حامد غانم المولود عام ١٩٥٣م والحاصل على الدكتوراه في الطب النفسي عام ١٩٨٥م من جامعة عين شمس في كتابه «الإدمان بين الوهم والحقيقة» الذي اشتمل على بحث واف عن الأفيون ومشتقاته. قال: تشير بعض المخطوطات المكتوبة باللغة السامرية والتي ترجع إلى أكثر من ٥٠٠ سنة قبل الميلاد إلى أن الأفيون كان معروفاً ومتداولاً بين أقوام نزحوا من آسيا الصغرى واستوطنوا العراق ونشروا ثقافتهم فيها.. وفي حوالي القرن العاشر الميلادي دخل الأفيون بلاد الصين حيث كان يستخدم لعلاج الإسهال إلّا أنه قد استقر هناك وشاع استعماله لقرون تالية بل إنه كان السبب في حروب القرن التاسع عشر وهي ما عرفت بحروب الأفيون.

وبعض مشتقات الأفيون تستخرج مباشرة من نبات الخشخاش كالمورفين. والكودايين. والهيروين والبعض الآخر يصنع كالميثادون. والبيشيدين. والدولوكسين. والاستاندول.

ومدمنو الأفيون يتعاطون عادة مواد أخرى قبل وأثناء استخدامهم لها. كالسجائر. والحشيش والخمور. هذا هو الأفيون. أما كيف يكون جسم متعاطيه وما يلحق به من أضرار بعد ما هو في صورة حسنة ونظارة وحيوية فهذا ما وصفه لنا الشاعر فتح الله بن النحاس الحلبي المتوفى بالمدينة المنورة سنة ١٠٥٢هـ، في قصيدة نعى بها نفسه على أكل الأفيون. ويتأسف فيها على ماضي نظارته وحسنه.. منها قوله:

من يدخل الأفيون بيت لهاته
فليلق بين يديه نَقْدَ حياته

وإذا سمعتم بامرئ شرب الردى
عزوه بعد حياته بمماته

لويابثين رأيت صَبَّك قبل ما الـ
أفيون أنحله وحلّ بذاته

في مثل عمر البدر يرتع في الريا
ض الزّهْوِ مثل الظبي في فلتاته

من فوق خد الدهر يسحب ذيل ثو
ب مُناه أنّى شاء وهو مواته

وتراه إن عبث النسيم بقده
ينقدُ شروي الغصن في حركاته

يرنو فيفعل ما يشاء كأنما
ملك المنية صال من لحظاته

لرأيت شخص الحسن في مرآته
ودفعت بدر التم عن عتباته

أما صفات بعض الشخصيات التي يكثر بينها تعاطى الأفيون فهي على حد قولهم: ١ ـ الشخصية السيكوباتية وهي التي تسعى للمتعة السريعة، ولا تهتم بقيم أو مبادئ أخلاقية. ٢ ـ الشخصية الماشوسية المائلة إلى الاكتئاب في محاولة لتحطيم الذات، وكأنها تملأ خواءها بهذه الأدوية. ٣ ـ الشخصية الشنفصامية للتغلب على الشعور بالوحدة والإحساس بالتفكك. ٤ ـ الشخصية النرجسية كوسيلة للتحكم في الوسط المحيد وتدعيم أحاسيس العظمة لديها.

العاشق يسمع في قلبه رنة سهم معشوقه!!

وإذا ما عمد القارئ إلى قراءة شعر الغزل ليستخلص موضوعاً أو أكثر مما تحلق به أجنحة الإبداع في سماء النسيب. فإنه يحتار أيما حيرة أمام ذلك الكم الهائل من المعاني المخترعة. والمفردات الشعرية الجميلة التي يستخرجها شعراء الغزل من بحور البلاغة وأعماق اللغة. وينظمونها شعراً بأساليب تشبه أشرطة الذهب لوناً وقيمة. وطبيعة الماء رقة وعذوبة..

وإذا ما أبدى الشعراء الشكوى من صد معشوقاتهم عنهم تدللاً. فإنهم يصورون حسن قبولهم لذلك الصد. ويترجمون ما يعانونه في سبيله في عبارات تذوب رقة ولطافة وجمالاً. فهم يصفون لحاظ معشوقاتهم عندما ينظرن إليهم نظرات فيها تدلل وتكسر. وتمنع بالسهام المفوقة نحو قلوبهم. ومن بديع مخترعاتهم لما يصور تلك الحالة. وقولهم. بأنهم يسمعون رنات سهام اللواحظ وهي تقع على قلوبهم.. وذلك مثل قول الشاعر أسعد بن أحمد بن عبد الكريم العبادي المتوفى سنة ١١٢٥هـ، ولعله هو السابق لاختراع سماع رنّة سهم الألحاظ في القلب. إذ يقول من قصيدة له:

واقصدني من ناظريه بأسهم
تركن دمي يجري عِياناً على الترب

وليس سواه قاتلي حيث أنني
سمعت بأذني رنّة السهم في قلبي

وكذلك قال الشاعر محمد بن مراد بن محمد بن يحيى السقاميني،

أغفل ذكر مولده وسنة وفاته صاحب «نفحة الريحانة» وتحققها، من قصيدة له:

وفوّق لي من جفن لحظيه أسهماً
ولا سهم إلّا ما تَرَيَسَّنَ بالهدب

فحققت ظني أنه قاتلي لما
سمعتُ بأذني رنّةً السهم في قلبي

وللشاعر موسى بن أسعد بن يحيى المحاسني الحنفي الدمشقي ولد بدمشق ومات عام ١١٧٣هـ، قصيدة غزلية جميلة. أتى على ذكر رنين السهم في القلب. وذلك بقوله منها:

وراسن سهاماً من لحاظ قواتل
سفكن دمي عمداً وأثرن في القلب

فكانت لقتلي عِلَّة ودليلها
سمعتُ بأذني رنّة السهم في قلبي

وهز مؤلف «نفخة الريحانة» الشاعر محمد أمين بن فضل الله محب الدين المحبي المولود عام ١٠٦١هـ، والمتوفي عام ١١١١هـ هذا التطريب . وتساقه هذا المعنى فأبت قريحته إلَّا أن تجيب داعي المجاراة فأنشأ أبياتاً غزلية. وضمن عجز بيت الشاعر العبادي الذي تعاورته الشعراء من بعده بالتضمين كما تقدم.. من تلك الأبيات قوله:

يهددني طوراً بعضب لحاظه
ويُقْصِدُ أحياناً فؤادي بالهدب

فلم أدر أيّاً قاتلي غير أنني
سمعت بأذني رنّة السهم في قلبي



عودة إلى رنين السهم في قلب العاشق!!

والعبارة المخترعة تجتذب الحس المرهف ويكون لها وقع في الأذن العاشقة.. فتحمل القارئ على العودة إلى قراءتها أو البحث عنها عند قائل آخر غير مخترعها.

وعبارة ـ رنة السهم في قلب العاشق ـ فيها حلاوة ذوب النسيب. وطلاوة الغزل الذي يترجم عذاب العاشق... وإنك لتقرؤها وكأنك ترى شاعرها منصتاً لسماع رنين سهام الألحاظ وهي تقع في قلبه. وكأنما هي حبات مطر باردة قد أصابته في فصل الربيع.

وإضافة إلى الشواهد التي تقدمت هذا الموضوع.. أدرج هنا قول الشاعر حسين بن أحمد الدمشقي المعروف بابن مُصَلِّي والذي لم يذكر محققه «نفحة الريحان» تاريخ مولده. وإنما أشار إلى أن وفاته كانت سنة ١١٥٢هـ:

بروحي فتاة رَنّح التّيه عِطفها
تميس بإعراض وعُجب على الصب

أمالَ بها سكر الدلال فعربدتْ
لواحظها بالفتك في الجسم والقلب

وقد جاوزت في الحسن فرط بهائها
ولم تخش لومي بل يلذ لها عَتْبي

أماطتْ حجاب الحسن عن نور وجهها
فخرّ هلال الأفق مُلْقًى على الترب

غوازلُ لَحْظيها وفُتْر جفونها
رمتني بها تيهاً غُزَيِّلَةُ السرب

فلم أدر في أيٍّ رمتني وإنما
سمعت بأذني رنّة السهم في قلبي

وكذلك قال الشاعر عثمان بن محمد بن رجب المعروف بالشمعة والمتوفى سنة ١١٢٦هـ، من أبيات غزلية:

فقال اصطبر صبر الكرام لأنني
أعامل أهل العشق بالقتل والسلب

وصال ووافى قوسه لي رامياً
سمعت بأذني رنّةَ السهم في قلبي

(*) ومما لا يتفق مع القافية التي ألزمت نفسي بالتمسك بها في شواهد الشعر التي لا تزيد ولا تقل عن ثمانية أبيات لكل موضوع من موضوعات هذا الكتاب.. ولأن هناك بقية لسماع رنين سهم العاشق في القلب.. على غير قافية الباء، أحببت إيراد بعض منها في هذه الحاشية: قال صاحب: «نفحة الريحانة» قال جامعه الفاضل محمد المحمودي.. ثم أورد أبياتاً منها قوله:

وما برحوا بالعذل حتى بأذنهم ... لقد سمعوا في مهجتي رنّة السهم

ولعبد الرحمٰن بن إبراهيم بن أحمد الحنفي الدمشقي المعروف بابن عبد الرزاق المتوفى سنة ١١٣٨هـ من قصيدة له:

تبسم عن در نضيد ولؤلؤ ... فزاد غرامي حين بان ابتسامه
إذا فوقتْ منه اللواحظ أسهماً ... لنحوي رنّتْ في حشاي سهامه
غزال نفار قد أطال صدوده ... وقلبي له مرعى وفيه مقامه

وللشاعر عمر بن مصطفى الرجيحي قوله:

حنّتْ جميع العدى لمّا المتيم حَنّ ... والحب قاسِي لمضناه الشَّجي ما حنّ =

. . . .

= لمّا وفى قوس أهدابه لقتلي سَنّ   سمعتُ في وسط قلبي السهمَ لمّا رنّ
وقال الشاعر محمد أحمد الكنجي، أشار محقق «نفحة الريحانة» إلى عدم تمكنه من الحصول على ترجمة له:
راشني من لحاظه بسهام   قاتلات إلى فؤادي وُصُولُ
ما تحققتُ فعلها الفتك إلّا   حين رنّت فكان ذاك الدليل



حتى لا تستنزف خيرات بلادنا!!

إن التفكير الجماعي. والوعي القومي. والمنهج الاقتصادي. والإدراك الأدبي كلها حينما نستدعيها للعمل جنباً إلى جنب من أجل مصلحة الوطن. وتلبي طائعة. وبأقصى درجات السرعة. فإن ذلك يعني وجود قاعدة متينة متكاملة ومتماسكة. تقوم عليها الحياة الاجتماعية بشتى صورها. وألوان تعاونها.

ونحن إذا ما نظرنا جميعاً إلا بلادنا بعين لا تفوتها رؤية ما حولها. وما هو ضارب في عمق الأفق من حولنا فإننا نرى عمالة وافدة إلى بلادنا بشكل رهيب.. وإن وجودها بهذا الكم الهائل ما هو إلّا واحد من المعطيات الدالة على أن شبابنا قد تقاعست همته. وتنحى عن مجال العمل تاركاً الفرصة التي تواكب نهضتنا الشاملة للعمالة الوافدة التي يمثل وجودها عامل استنزاف لخيرات بلادنا. فضلاً عن بث الخمول والكسل في نفوسنا لنصبح في يوم من الأيام. ونحن غير قادرين على تأدية أي عمل بسيط يرتبط ارتباطاً مباشراً بحياتنا اليومية.

أأخي إني قد قرأت وساءني
قولاً أكيداً كثرة الغرباء

وأرى الغريب يزيل كل بنائنا
بالجهل والإجرام في ظلماء

أو لم نر أبناءنا لم يعملوا
يتجرعون نتائج الأخطاء

هذا ما قاله الشاعر السعودي المعاصر عبد المجيد محمد العمري في إحدى قصائده.

ومع استنزاف هذه العمالة لاقتصادنا وخيرات بلادنا فإننا لا نأمن بعضهم خاصة غير المسلمين منهم من ارتكاب الجرائم. وممارسة الفساد بشتى صوره وألوانه بدءاً بالسرقات وانتهاء بترويج المخدرات. وما إلى ذلك مما أشار إليه الشاعر عبد المجيد العمري في نفس قصيدته من أمور يجب أن لا تغيب عن أذهاننا وأن نحذرها كل الحذر. وذلك بقوله:

إن البلاد أحق في ثرواتها
وبقاؤها فيه عظيم وفاء

فتداركوا أمر العمالة واحذروا
فبها كثير الشر والخبثاء

إن الأجانب إن بقوا في أرضنا
صاروا أساس جرائم وبلاء

إن الأباعد إن تضاءل ما لهم
لا شيء يردعهم عن الفحشاء

وأشد ما نخشاه بث سمومهم
في أمة الإحسان والنعماء

بقي أن أقول: هل نتدارك الأمر يا شباب أمتنا. لنخدم مجتمعنا ونحافظ على ثرواتنا ونصون مصالحنا. حتى نكون أمة عاملة لا أمة اتكالية غافلة.



تشابه وصف الإبل بوصف النساء في الغزل!!

يتوهم القارئ الذي يقرأ شعراً كبعض شعر الشاعر القطامي المتوفى سنة ١٠١هـ، واسمه عمير بن شُييم بن عمرو بن عباد بن بكر بن عامر بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنيم بن تغلب بن حبيب. ويقال: إنه ابن أخت الشاعر الأموي النصراني، الأخطل.

قلت: يتوهم القارئ أثناء قراءته لبعض قصائد القطامي أهو يصف الإبل وترسلها في مشيها. أم هو يتغزل في النساء الغواني اللاتي يمشين مشية كلها تبتخر وتثني وتكسر.

ولقد وقف الشاعر القطامي بقارئ شعره هذا الموقف الذي تشابه فيه وصف الإبل بوصف النساء.

ولقد نظر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى هذا اللون من شعر القطامي بعين الناقد البصير المعجب به. حيث قال:

لو أن القطامي قال بيته الذي وصف فيه مشية الإبل بقوله:

يمشين رهواً فلا الأعجاز خاذلة

ولا الصدور على الأعجاز تتكل

في النساء لكان أشعر الناس.

وقال أيضاً: لو كان في صفة النساء كان أبلغ.

وهذا البيت هو أحد أبيات قصيدة طويلة عدها بعضهم من أشهر قصائد القطامي.. منها قوله وهو مما يلي البيت ويجلو التوهم:

فهن معترضات والحصىٰ رمض
والريح ساكنة والظل معتدل

يتبعن سامية العينين تحسبها
مجنونة أو ترى ما لا ترى الإبل

حتى وردن ركيات الغُوير وقد
كاد الملاء من الكتان يشتعل

وقد تعرجتُ لما ورّكت أرَكا
ذات الشمال وعن أيماننا الرِجَل(١)

على مناد دعانا دعوةً كشفتْ
عنا النعاس وفي أعناقنا مَيَلُ

فقلت للركب لمّا أن علا بهم
من عن يمين الحُبيّا نظرةٌ قَبَل(٢)

ألمحةً من سنى برق رأى بصري
أم وجه «عالية» اختالتْ به الكلل(٣)

ويبلغ مجموع أبيات هذه القصيدة ٤٢ بيتاً.



---

(١) ورّكت: عدلت.. أرك: موضع.. الرِجَل: مسيل الماء واحدها: رجلة.
(٢) الحبيّا: اسم مكان.
(٣) الكلل: الستور.

شعر القطامي في نظر النقاد القدامى!!

لقد اهتم النقاد ومؤرخو الأدب القدامى بدراسة شعر المعاصرين لهم ومن سبقهم. اهتماماً بالغاً مما أهل دراستهم بأن تكون مرجعاً يزيل الخلاف الذي ينشب بين النقاد المعاصرين حول تفضيل شاعر قديم على آخر حيث صنفوهم وجعلوهم طبقات.

والقطامي الذي يهمنا أمره في هذا الموضوع جعله ابن سلام من شعراء الطبقة الثانية الإسلاميين.

ويذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الشهير ـ الأغاني ـ أن أحمد بن جعفر بن جحظة قال: حدثني علي بن يحيى المنجم قال: سمعت ما لا يحصى من الرواة يقولون: أحسن الناس ابتداء للقصيدة في الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول:

ألا عِم صباحاً أيها الطلل البالي(1)

وحيث يقول:

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل(2)

وفي الإسلاميين القطامي حيث يقول:

إنا محيّوك فاسلم أيها الطلل

وقال أبو فرج أيضاً: قال عبد الملك بن مروان للأخطل: أتحب

---

(1) عجز البيت هو: «وهل يَعِمَنْ من كان في العُصُر الخالي».

(2) عجز البيت هو: «بسقط اللوىٰ بين الدخول فحومل».

أن لك قياضاً بشعرك شعر أحد من العرب. أم تحب أنك قلته؟. قال: لا والله يا أمير المؤمنين إلا أني وددت أني كنت قلت أبياتاً قالها رجل منا مغدف القناع قليل السماع قصير الذراع. قال: وما قال؟ فأنشده قول القطامي:

إنا محيّوك فاسلم أيها الطلل
وإن بليت وإن طالت بك الطيل

حتى أتى على آخرها.. وهي قصيدة من أشهر قصائده وتقع في ٤٢ بيتاً تقريباً والحقيقة أن كل قصائد القطامي جميلة ورقيقة. فمن إحدى قصائده هذه الأبيات:

ألا عللاني كل حيّ معلل
ولا تعداني الشرّ والخير مقبل

فإنكما لا تدريان أما مضى
من الدهر أو ما قد تأخر أطول

وما للفتى مال إذا مرّ نعشه
على عمد فوق المناكب يحمل

أحاديث عن عاد وجرهم جمة
يُثوّرها العضان: زيد ود غفل[١]

لنا ليلة منها بعيساء أسهم
وليلتنا بالجد أصبى وأجهل



(١) العض: المنكر من الرجال. الداهي.

بحث القطامي عن مكافئ له على قصيدته فوجده!!

والقطامي: هو الشاعر الأموي المشهور. والذي سبقت ترجمته في موضوع تقدم في هذا الجزء.

يروى أنه لما صنع قصيدته المشهورة. والتي استهلها بقوله:

إنا محيّوك فاسلم أيها الطلل

وإن بليت وإن طالت بك الطيل

قدم بها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق ليمدحه. فقيل له: إنه بخيل لا يعطي الشعراء.

وقيل: بل قدم بها في خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله. فقيل له: إن الشعر لا ينفق عند هذا. ولا يعطي شيئاً. وهذا عبد الواحد بن سليمان فامدحه بها. فمدحه. فقال له عبد الواحد: كم أملت من أمير المؤمنين قال القطامي: أن يعطيني ثلاثين ناقة.. قال عبد الواحد: قد أمرت لك بخمسين ناقة موقوة براً وتمراً وثياباً. ثم أمر بدفع ذلك إليه.

أما الأبيات التي طرفها من أجل الوصول إلى مديح عبد الواحد فهي أبيات غزلية لم يطل النفس فيها. بل تخلص بعد عدة أبيات إلى مديح عبد الواحد وذكر اسمه بعد ذكر ناقته التي أقلته إلى حيث عبد الواحد بن سليمان. وهي قوله:

ألمحة من سنى برق رأى بصري

أم وجه «عالية» اختالت به الكلل[1]

(١) اختالت: تبخترت.. الكلل: الستور.

تهدي لنا كل ما كانت علاوتنا
ريح الخزامىٰ جرى فيها لندى الخضل[1]

وقد أبيت إذا ما شئتُ بات معي
على الفراش الضجيع الأغيد الرّتِل[2]

وقد تباكرني الصهباء ترفعها
إليّ لينةٌ أطرافها ثَمِلُ[3]

أقول للحرف لمّا أن شكت أُصلا
من السفار فأفنى نَيّها الرّحلُ[4]

إن ترجعي من أبي عثمان مُنجحةً
فقد يهون على المستنجح العمل

أهل المدينة لا يَحْزُنكَ شأنهم
إذا تخطأ «عبد الواحد» الأجل



(١) العلاوة: الموضع المرتفع.
(٢) الرتل: حسن تناسق الشيء. وثغر رَتِل حسن النضد مستوىٰ النبات. وقيل المفلح وقيل بين أسنانه فروج لا يركب بعضها على بعض. والرّتَل: بياض الأسنان وكثرة مائها «اللسان».
(٣) الثمل: السكر. وثمِل بالكسر يثمل ثملاً فهو ثمل. إذا سكر وأخذ فيه الشراب. قال الأعشى:
فقلتُ للشرب في دُرْني وقد ثملوا   شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل
(٤) النّي: قال محقق ديوان القطامي: الشجر ولعله خطأ مطبعي إذ أن الصحيح هو: الشحم.

بعض المظاهر تغري ثم تؤذي!!

ما أكثر المظاهر التي يصطنعها بعض الناس. ويظهرون بها في أزياء تدني منهم الناس بحكم ما لها من جاذبية تخدع النظر ببريقها المزيف.

فكم من الناس من ينساق نحو المظهر الذي يبصره دون أن يراجع بصيرته. وينتدب أحاسيسه لتستشعر حقيقة ذلك المظهر الذي راق عينه.. وتفتش عن باطنه. أهو موافق لظاهره أم أنه مغاير له مغايرة خداعة.

وكم من شخص تعجبك هيئته. فإذا تحدث وددت أنه يخزم فمه.. ومن النساء ما يعجبك جمالها فتتمنى أنها لك زوجة. وإذا سألت عنها قيل لك.. فيها كذا وكذا!!. مما يبتعد بها عما تعايشه من تقاليد وعادات. وخلق. وطباع. فما تلبث إلّا أن تحمد الله أنها ليست في حبالك.

روى لي أحدهم أن شاباً تزوج فتاة عليها مسحة من الجمال. فوجدها أكسل من نعجة ترعى وهي رابضة. يكلفها الطبخ فتطلب إليه الذهاب بها إلى المطعم.. ويكلفها غسل الثياب فتطلب إليه غسلها عند الغسال. يكلفها تنظيف البيت فتطلب إليه خادماً ينظف البيت.. يكلفها حتى عمل الشاي والقهوة.. فحاول أن يوقظ كسلها وأن يجعل منها ربة بيت تترسم خطى جاراتها ونساء ذويه وأقاربه.. فأبت ذلك.. واحتدم الأمر بينهما فتدخل الأهل وتطور النزاع. وامتد حتى وصل إلى الاعتداء عليه وضربه من قبل أبيها الذي أصر على بقائها على كسلها.. والحقيقة أنها صورة لا نقول أنها من هامش المجتمع. وإنما نستفيد منها بأن بعض المظاهر.. تغري ثم تؤذي. ثم أنها صورة من الصور التي تستهوي من لا يجعل قبله وعقله دليلاً لعينه لا من يجعل عينه دليل قلبه وعقله.

والحقيقة أن ضحايا عشاق المظاهر أكثر من أن تحصر أو تحصى. لا من حيث اعتبارها بوابة للدخول منها في الحياة الزوجية وإنما في أمور كثيرة ومختلفة لا تمت للزواج بصلة.. وقد رصد الشعراء الكثير منها... فمن ذلك مثلاً ما قاله الشاعر: مصطفى عثمان البابي المتوفى سنة ١٠٩١هـ، من قصيدة طويلة هي في جـ٢ نفحة الريحانة:

جلّ باري الأمور في صور الأضـ
داد أبْدَى اللذات في الآلام

وجلا العز في ملابس ذل
وكسا الذل صورة الإعظام

وأراك المخدوم ناعم بال
وهو أشقى الخدام بالخدام

ومنها قوله:

حركات تجري على غير طبع
وقعود مُعَيَّنُ وقيام

وأشد البلا على الرأس تُلْفَى
عُمة مثل قمة الأهرام

ولباس يغرى النوائب بالأكْـ
ناف ضافي الأذيال والأكمام

صاحبيَّ ابغيا لنا خارج العا
لم داراً فبئس دار الزحام

ومنها قوله:

ولو أن العيون زال غشاها
لرأت كل أخْمص فوق هام

الملل لا يؤكل صاحبه ثمرة عمل!!

الناس كلهم يصفون من لا يستديم على حال بـ ـ الملول ـ أي الذي ليس له جلد على شيء... والملول تراه عندما يبدأ عملاً ما يكون أقوى من أي شخص آخر. لكنه ما يلبث أن يكره ذلك العمل فيأخذ في التراخي عن مزاولته تراخياً يقل معه إنتاجه. ويتدنى مستوى همته ونشاطه حتى يصل إلى درجة العزوف عن ممارسته. وإن كان هو مصدر رزقه الوحيد.

والذي يمل لا تراه صاحب مهنة يعرف بها. فهو إن مارس التجارة مل وأهمل وخسر فلا يسمى تاجراً. وإن مارس المهن الصناعية والحرف اليدوية فإنه لا يمهر في أي صناعة كانت حيث يحول الملل بينه وبين المداومة عليها مداومة يحقق له إتقانها ما يقرن اسمه بها.

والملل إذ استفحل في الإنسان يجعل صاحبه بلا صديق ولا رفيق. فهو يصادق أحدهم فيمل من صداقته وينصرف إلى غيره دون سبب.

يقول الشاعر محمد بن عمر بن عبد الوهاب العُرْضي المتوفى سنة ١٠٧١هـ، واصفاً نفسه بالملول في قصيدة له وما كان ملولاً فسيرته تثبت أنه طلب العلم وولي القضاء واشتغل بالتدريس ثم ولي إفتاء الحنفية بحلب ثم إفتاء الشافعية والوعظ بجامع حلب.. ولكن أسلوب الوعظ جعله ينظر إلى المثل، إياك أعني واسمعي يا جارة.. من تلك القصيدة قوله:

خُلقت ملولاً لو يطول بي الصبا

تلقّيْتُ شيبي ضاحك السن باسما

ولو لم أرجّ الموت في كل ساعة
لقضيت هذا العمر ثكلان واجما

ولولا انحطاطي تارة وترفعي
لما طلبت نفسي العلى والمكارما

فمالي صديق ترتضيه صداقتي
ولا لي عدوٌّ أتقيه المظالما

فطوراً جعلت الأصدقاء أعاديا
وطوراً عدوي أرتضيه مسالما

ولا لي على حال قرار ولا بقا
وكيف وبي التبديل أصبح قائما

ومنها قوله:

أشاهد هذا الخلق مثل سفينة
وسفَّانها المولى تبارك دائما

فمن شاء ينجيه إلى ساحل البقا
ومن شاء يلقيه فيصبح عائما

والوقوف على صفة الملل ومعرفة كنهه. أهو خمول عقلي أم خواء ذهني وداء نفسي. أم أنه مجموعة عناصر تألفت من سلبيات الخصال التي تقوم عليها حياة الإنسان الفكرية والعقلية ثم تتحد فتشكل ما يعرف بالملل الذي يجلب لصاحبه الفقر وسوء الحال وعدم النجاح في الأمور التي تتطلب المثابرة والاستمرار في بذل الجهد لجني الثمار.. إنه أمر يطول بحثه. ولا يتفق مع منهج هذا الكتاب الذي أبتعد بموضوعاته عن الإسهاب.

كتابة عن شهر رمضان في رمضان!!

منذ أن باشرت كتابة موضوعات كتابي هذا «الأدب المثمن» الذي سيصبح هذا الموضوع بمشيئة الله واحد من موضوعات الجزء الرابع عشر منه، فإنه قل أن يمر رمضان وأنا أشتغل بجزء من الأجزاء المتقدمة إلّا وأجدها فرصة أتخذ منها موضوعاً عن رمضان.

وفي السنة التي كان دخول رمضان فيها يوم الأحد عام ١٤١٦هـ الموافق ٢١ يناير عام ١٩٩٦م والدلو عام ١٣٧٤هـ هجرية شمسية تكررت الفرصة لي فشكراً لربي على طول العمر والتردد في الأثر، وإني أسأله جل شأنه أن يعيده عليّ وعلى جميع المسلمين بالخير واليمن والبركة، والعافية والأمن والاستقرار، وأن ينصر المسلمين المضطهدين في البوسنة والهرسك في شرق أوروبا، وأن ينصر الشيشان ويكتب لهم استقلالهم عن روسيا الشيوعية الحمراء، وأن يصلح شأن الأفغان فيما بينهم من منازعات على الرئاسة وأن يكتب تعددية الطوائف التي تتذرع بالإسلام وهي أبعد من يكون عنه، وأن يسحق اليهود الذين لهم يد في كل قضية تمس كرامة المسلمين وكل قضية تدمر مصالحهم.

وإذا نظرنا إلى رمضان من خلال تاريخ حروب المسلمين وجدنا أن أعظمها وأكبرها قد دارت رحاها في شهر رمضان فكان النصر المؤزر للمسلمين على أعدائهم، لذا فإن القول عن حال المسلمين في رمضان لا يحصر وأن أقل ما نقوله. أنه شهر فيه دروس وعبر، فهو يعلم الأغنياء الغافلين عن الفقراء كيف يكون الجوع فيستحلب أكفهم بالصدقات ويكفينا من عبره الروحانية أن الله قد اختص صيامه لنفسه من بين سائر العبادات

ففيما رواه ﷺ عن ربه أنه قال: «الصوم لي وأنا أجزي به» وبمقارنة الصوم بسائر العبادات أن ما سواه يظهر فيها لدى بعض الناس شيء من الرياء والمباهات والادعاء، أما الصوم فهو الذي يبتعد بصاحبه عن هذه الأشياء في حالتين الأولى أنه لا يُشَكُّ في أنه غير صائم بينما هو إذ خلا عن أعين الناس أكل وشرب ولم يره إلّا الله، والثانية لا يشك في أنه غير صائم وهو صائم حقيقة، ففعل الصوم قائم في حالتين إذ ليس يعلم الحالة السيئة إلّا الله، وعلى هذا فالصوم ليس كالصلاة، ولا كالزكاة ولا كالحج لأن هذه الأركان يراها الناس ويشهد لصاحبها بها، ولا يخفى منها إلّا المراءاة بها، وفيها يقول الشاعر مصطفى صادق الرافعي رحمه الله من قصيدة عدد فيها بعض فضائل رمضان وطالب الصائمين بمضاعفة الأعمال الخيرة فيه وذلك مثل قوله:

فديتك زائراً في كل عام
تُحيّا بالسلامة والسلام

وتقبل كالغمام يفيض حيناً
ويبقى بعده أثر الغمام

ومثل قوله منها:

ولم أر قبل حبك من حبيب
كفى العشاق لوعات الغرام

فلو تدري العوالم ما درينا
لحنت للصلاة وللصيام

بني الإسلام هذا خير ضيف
إذا غشى الكريم ذرا الكرام

يلمكموا على خير السجايا
ويجمعكم على الهمم العظام

فشدوا فيه أيديكم بعزم
كما شد الكمّى على الحسام

وقوموا في لياليه الغوالي
فما عاجت عليكم للمقام



حقائق يستدل بها على العاشق

ما من طبع أو مهنة إلّا ويكون لها أثر على صاحبها ويستدل عليه بها، ويعرف بها.

وإن نحن فلسفنا هذا الواقع بنقله إلى جانب من جوانب الأدب، ودخلنا من خلاله ميدان الهوى وساحة العشق، وجدنا هناك لائحة فيها شيء من المعطيات التي تدلنا على الشخص الذي خضع لسلطان الهوى، وهي - وأعني بذلك اللائحة - من صنع العرب ونتائج فراستهم التي تقرر أن أول علامات الهوى على ذي اللب، نحول الجسم، وطول السقم، واصفرار اللون، وقلة النوم، وخشوع النظر، وإدمان الفكر، وسرعة الدموع، وإظهار الخشوع، وكثرة الأنين، وإعلان الحنين، وانسكاب العبرات وتتابع الزفرات، ولن يُغْبَىٰ ادعاء أنه قد قارن العشق والهوى لأن علامات الهوى واضحة وآيات الادعاء ظاهرة.

قال شاعرهم:

ما يعرف الحزن إلّا كل من عشقا
وليس من قال إني عاشق صدقا

للعاشقين نحول يعرفون به
من طول ما حالفوا الأحزان والأرقا

وللفلاسفة والأطباء في ذلك قول يثبت ما قالته العرب، فقد زعموا أن من غلب عليه البلغم عظم جسمه وكثر شحمه ولحمه، وقل فهمه، وطال سباته، وانعقد لسانه لغلبة البلغم على قلبه، واحتواء الرطوبة على لبه، ومن كان أغلب مزاجاته المِرّة خف جسمه، وقل لحمه وذاب شحمه

وحسن ذهنه، وصح فهمه، لأن النحول علامة المتفرسين، ودلالة المتوسمين، لا يكاد أن تخطئ فيه الفراسة، ولا تكذب فيه العيافة.

ومن أمثال العرب في ذلك قولهم: البطنة تُذهب الفطنة.

ويمضي صاحب كتاب «الموشى» في تسجيل الأفراد المتعلقة بالهوى والعشق، فيقول: روى عن الهزنادي عن هشام عن ابن سيرين قال: كانوا لا يرون بالعشق بأساً في غير ريبة، وقيل لبعض البصريين: إن ابنك قد عشق فقال: وما بأس به، إنه إذا عشق نظف وظرف ولطف، وقيل لبعض العرب: متى يكون الفتى بليغاً؟ قال: إذا وصف هوى حيّاً، وأنشد بعض الأدباء:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى
وما خير فيمن لا يحب ويعشق

أما الشاعر الجمحي فقد أورد له أبو الحسن الباخرزمي في كتابه «دمية القصر وعصرة أهل العصر» هذه الأبيات:

عَتَق بكفّي من خيال طارق
عند الكرى فتصافح متعانق

فأبيتُ أضحك من وصال كاذب
وأظل أبكي من فراق صادق

إني أصافحه بكفّي صائن
لكنْ ألاحظه بعينيْ فاسق

ما للهجوم ألفن كلّ متيّم
أعشق مهجة كل صب عاشق؟

وما أجمل قول أحدهم:

وما تلفت إلّا من العشق مهجتي
وهل طاب عيش لامرئ غير عاشق

العشاق القدامى والحداثيون

والقارئ لكتب التراث الأدبي يستمتع بما فيها من صور مشرقة، وقراءتي التي أوجدت هذا العنوان كانت مرتكزة على سير بعض العشاق القدامى، لألتفت من هناك إلى واقع عشاقنا اليوم، وأستطلع ما ظننته قائماً بين أدبهما من تجانس، لكنني وجدت البون بينهما شائعاً، والمسافة بين الأدبين بعيدة، بل إن القيمة الأدبية بينهما لا تقدر، وإن قيل لماذا؟ قلت: إن الحداثيين لا يعرفون العذرية في الحب، ولا معناها في التغزل، فهم إما خاضع لخيال ضيق الأفق، لا يرسم إلّا صوراً قلقة في ألفاظها وسوقية منكرة بل مبتذلة في معناها.

أما القدامى فقد خلفوا لنا بعشقهم أدباً راقياً، ولا أريد هنا أن أسهب في وصف أدبهم فهذا شيء قد ضمته كتب التراث، بقدر ما أريد أن أورد ذكر بعض مشاهيرهم، وشيء من نوادر أشعارهم المرتبطة بعشقهم من ذلك: قيس مجنون بني عامر عاشق ليلى العامرية، وقيس بن ذريع عاشق لبنى، وتوبة الحميرى عاشق ليلى الأخيلية وكثير عاشق عزة، وعروة بن حزام عاشق عفراء وقد ضرب بعشقه المثل حيث يقول جميل بن معمر عاشق بثينة:

ومـا وجـدتْ وجـدي بـهـا أم واحـد
ولا وجد النّهديُّ وجدي على هند
ولا وجـد الـعـذرى عـروة إذْ قـضـى
كوجدي ولا من كان قبلي ولا بعدي

على أن من قد مات صادف راحة

وما لفؤادي من روَاح ولا رشد

ومن ذلك: المؤمل عشق الذلفاء والمرقش الأصغر عشق فاطمة بنت المنذر وعمرو بن عجلان عشق هند وهو الذي أشار إليه أبو وجزة السّعدي في قوله:

وفي عروة العذري إن متُّ أسوة

وعمرو بن عجلان الذي فتنت هند

وبي مثل ما ماتا به غير أنني

إلى أجل لم يأتني وقته بعد

ويروى أن عمرو بن عجلان قد قتلته هند، وقيل: إنه طلق زوجته هنداً وندم فمات أسفاً عليها.

ومن ذلك علي بن أديم عشق نهلة، والمهذب عشق لذة، وذو الرمة عشق مية، وقابوس عشق مُنَيّة، والمخبل السعدي عشق الميلا، وحاتم طي عشق ماوية، ووضاح اليمن عشق أم البنين، والغمر بن ضرار عشق جمل، والنمر بن تولب عشق حمزة، وعمر عشق دعد، وعمر بن أبي ربيعة عشق الثريا، والأخوص عشق سلامة، وهو القائل:

إذا جئتُ قالوا قد أتى وتهامسوا

كأن لم يجد فيما مضى أحد وجدي

فعروة سن الحب قبلي إذ شقى

بعفراء والنهدي مات على هند

ومن ذلك أسعد بن عمرو عشق ليلى بنت صفي، ونصيب عشق زينب، وسحيم عبد بني الحسحاس عشق عميرة، وعبيد الله بن قيس عشق كثيره، وأبو العتاهية عشق عتبة، والعباس بن الأحنف عشق فوز، وأبو الشيص عشق أمامة، أما شعراء الغزل الذين ذكروا في أشعارهم

أكثر من اسم، إما للتعمية الحقيقية أو لحقيقة تعدد معشوقاتهم وأبدعوا أيما إبداع في صياغة أساليب الغزل فهم أكثر من أن يعدوا، أو تحصر أسماؤهم في موضوع كهذا، فمنهم على سبيل المثال: أبو كثير الهذلي، وأبو صخر الهذلي، وأبو دهبل الجمحي، وريان العذري، والصمة بن عبد الله القشيري، وابن أذينة وابن الدمينة، وابن الطثرية، وابن ميّادة، والحسين بن مطير.

وحيث سبقت الإشارة إلى أن عروة وهو مضرب المثل في عمق العشق.. فهذا الشاعر جدير بأن نسوقه مثالاً لما هو عليه من وجد:

هل أنتِ شافيةً قلباً يهيم بكم
لم يلق عروة من عفراء ما وجدا



الموظف المتغطرس، وفراشه الألكن!!

قد تزرع الابتسامة صفحةٌ تقرؤها تحت عنوان: «أدب الفكاهة» وقد تبتسم من موضوع تطالعك به صحيفة سيارة، فتكون تلك الابتسامة مفتاح جد ونشاط تتمتع به طوال يومك.

وقد يمحو الابتسامة من على شفتيك شخص يحدثك مع الصباح الباكر بمزاج عصبي تتخلل حديثه كلمات تجرح الشعور وتزرع التفكير في جزائه.

وقد تقطع ساعات يومك بين السلب والإيجاب فيما تسمعه من الناس، فتضحك ساعة وتقطب أخرى، وهكذا تقضي ساعات يومك بين جد وهزل، وشد ورخاء، وعزم وتواني، لكن أحسنها ما يجلب الابتسامة بغير ما يخل بأدب، أو يبنى على منفعة تقوم على إضرار بأناس آخرين.

ونقل الصفات التي يتصف بها بعض الناس بأسلوب تتداخل فيه عوامل الجد ورموزه مع أدوات الهزل وإشاراته، بقصد تلوين ما فيها من عبرة بلون يميزها من بين أدوات السخرية التي كانت مختارة لعرض تلك الصفات التي ربما تكون مذمومة ذماً اجتماعياً.

والشاعر المعاصر عمر يوسف عبد ربه، وهو شاعر مفوه يجيد سلوك دروب الحلمنتيشيين.. يتحفنا بين آونة وأخرى ببعض الموضوعات ذات الظواهر الاجتماعية المذمومة بأسلوب شعري يضحك ظاهره ويبكي باطنه، ومن ذلك ما عرضه في قصيدة له عن وصف سلوك موظف كبير متغطرس، وما يلقيه على فراش مكتبه من تعليمات تتعلق بهيئات المراجعين له كأن

يدخل عليه من يريد ويصرف عنه من لا يريده ولا يرغب رؤيته، فيستجيب ذلك الفراش الألكن لتلك التعليمات، من تلك القصيدة قوله:

من لا يرده ومن لا يبغ رؤيته
«أبقيه» عندك لا يأتي لا صغاء

ومن «يرده» على التلفون «مبتدئاً»
حين الرنين «بموسيقى» ونغماء

فإن تكرر هذا «الرن» قلت له
يا ابن الحلال أجبني دون إبطاء

تجده «يلكن» في ألفاظ يحفظها
عن ظهر قلب كتلقين «الببغاء»

«أمي» بغرفته مقفول «بابته»
ما تبغ «يا شيخ» ما في البيت مَنْ ماء[1]

فإنه الآن في التلفون منشغل
مع «المدامة» في حفلات «نجلاء»

ترتب الأكل «والهلوى» ولازمها
وما «تهدره» من لبس وأزياء[2]

والناس بالباب «ملطوعون» لا أحد
يجيب فيهم بنعمات ولا «لاء»[3]

وقد نشرت القصيدة في العدد ١٠٧٣٥ من جريدة «عكاظ» الصادر يوم الأربعاء ١٢ شعبان على ١٤١٦هـ.

---

(١) أمي: يعني: عمى.

(٢) الهلوى: يعني: الحلوى. وما تهدره: يعني ما يحضره.

(٣) ملطوعون: لهجة في المجاز. أي مسفوهون.

لِنُلقِّبه بـ(شاكم)

وإذا كان محمود بن الحسين السندي بن شاهك، ويكنى بأبي الفتح، وقيل: بأبي نصر، وهو من أهالي الرملة بفلسطين والمتوفى سنة ٣٥٨هـ قد لقّب نفسه بـ«كشاجم» حيث نحته من كونه كاتباً وشاعراً، ومنشئاً، وجولياً، ومنطقياً، وقيل غير ذلك مما أشار إليه (الكتبي) في «فوات الوفيات» فلماذا لا ننحت لأستاذنا الكريم عثمان الناصر الصالح اسماً من نشاطاته الأدبية وتوجهاته الفكرية وخصاله الحميدة، فنلقبه بـ(شاكم) لنصيب بذلك معنيين: الأول واقعية النحت وصحة ما ننحت منه، فالشين لأنه شاعر، والألف لأنه أديب، والكاف لأنه كاتب، والميم لأنه مربي، أو معلم، أو مدرس، أو موجه، أما الثاني فهو لغوي، فـ(شاكم) اسم فاعل من شكم يشكم، شكماً، ومعنى الشكم: العطاء، وقيل: الجزاء، كما قيل في لسان العرب.

وشاكم هو في الحقيقة اللقب اللائق بأديبنا عثمان الصالح، فليقبله وِساماً متواضعاً منّي حيث لا أملك أكثر من ذلك فأمنحه إيّاه.

ومما كتبه (شاكم) ويعتبر أجَدّ ما كتبه مما سبق كتابتي لهذا الموضوع، هو كتابته في العدد ٨٤٩٣ من جريدة الجزيرة الصادر يوم السبت ٨ شعبان سنة ١٤١٦هـ تلك الكتابة التي أثنى فيها على الأستاذ عبد الرحمٰن مهند الراشد، الذي كان يعمل وكيلاً مساعداً بوزارة الإعلام للإعلام الداخلي، وصدرت الموافقة السامية بتعيينه مديراً عاماً لـ«مؤسسة الجزيرة الصحفية»، بدلاً من الأستاذ صالح السالم، كما أثنى على الأستاذ محمد عبد العزيز أبا حسين الذي كان يعمل نائباً لرئيس

تحرير جريدة الرياض، ثم عين رئيساً لتحرير جريدة الجزيرة بدلاً من الأستاذ محمد بن عباس، وقد باشر الاثنان عملهما يوم الاثنين الموافق ٣ شعبان عام ١٤١٦هـ، وقد تمنى (شاكم) أن يكونا خير خلف لخير سلف في تعبير نثري وشعري، استعرض في النثري نشاطات كل منهم، أما الشعري فمنه ما يخصهم جميعاً قوله:

«محمد» قد حُمدت «أبا حسين»
فأنت لدى الصحافة راق فنا

لقد أشرقت فينا يوم كنتم
تُرصِّف في «الرياض» الزهر حُسنا

ونقطف من تجاربكم كلاماً
وقولاً في «الجزيرة» سَرَّ ذِهنا

وهذا «راشد» أضحى مديراً
جزيرتنا به واللّه تهنا

خلفتم لابن عباس أديب
عليه وأنتمو (التحرير) أثنى

زميلٌ في الصحافة ما توانى
ثمار تجارب تُغْنى وتُجْنى

و«صالح» في الإدارة نعم شهم
جزيرتنا به تسمو وتُبنى

وكل منكمو خلف كريم
تُماثل كفه اليسرى ليمنى



ويكاد يهوى كل شيء من أجلها

قد يكون الهوى شعبة من شعب الجنون أحياناً فيعطل العقل ويسيطر على المدارك، وقد يستولي على مناطق جميع الحواس على اعتبار أنها قوة إذا ما اتحدت معه، وتظافرت وابتعدت بصاحبها عن مجتمع العقلانية، وقد يكون منطلق نبوغ يمنح العي فصاحة ومنطقاً، فيبدع في الحديث عمن قاده الهوى إليه حتى صار رهن إشارة الهوى.

وقد يصح القول بأن الهوى: هوآن: هوى يخضع لسلطان العشق، وهذا هو المسيطر على معظم حياة الناس، خاصة منهم من لا يزال في ربيع العمر، أما من كانوا في خريفه فهم القلة في أصحاب الهوى.

والهوى الثاني هو الهوى الذي يحكمه قانون محبة كل شيء، فكل ما طاب للنفس من شيء تراه يقودها إليه، ويمهد الطريق لما طاب لها، وهو على نقيض الهوى الذي لا يعرف من الطرق إلّا طريق العشق وترسم درب التواصل بين المتعاشقين، وهذا هو الذي يجعل العاشق يسلك كل درب يؤدي إلى معشوقته التي زرعت العشق في نفسه وسقته بماء الهوى الذي لا يروي ظمأه سواه.

وإذا لم يقف الهوى بالعاشق على أعتاب من جلب له الهوى فإن الأمر يكون خطير جداً.

وإذا ما حل هوى شخص معين في نفس من فتح صدره للهوى، ثم بعدت الشقة بينهما فإن الهوى لا بد يُغْزل في مخيلته فيجعله يهوى جميع الذكريات التي مرت بينهما بأمكنتها وأزمنتها، والشعراء الذين اعترفوا بهذا الواقع، وتألموا منه، ليسوا بالقليلين بحيث يمكن ذكر

أسمائهم مع نماذج من أشعارهم التي ترجموا فيها شيئاً عن معاناتهم لذلك الواقع، ولكن أكتفي بذكر جزء من قصيدة الشاعرة المعاصر عبد العزيز سعود البابطين وهو قوله:

وهوى الأحبة في دمي يجري وقد
ألفت عروقي حُبّ ذاك المغرم

في القلب في النفس العليلة بيتُهُ
يكفيه أن الحب لا لم يهزم

يا من إذا اشتعل الغرام رأيتها
في الشمس في القمر المنير وفي دمي

قد كنتِ لي فيما مضى أنتِ الهوى
واليوم يكفي من هواك تألمي

○ ○ ○ ○ ○

أهواك بل أهوى الزمان وأهله
أهوى الديار بأرضها والأنجم

وهويت أتراباً لها، ولأجلها
أحببتُ كل الكون غير مذمم

أهوى الدروب إلى الحبيب مشيتها
بترابها ورمالها واللُّوَّم

حتى العواذل والوشاة هويتهم
هم ذكروا قلبي بعصر الملهم

○ ○ ○ ○ ○

الشعر غاضب على بعض شعراء عصرنا!!

وغضب الشعر على بعض شعراء عصرنا ما أحدث انقساماً في صف الشعراء، فصاروا بين مؤيد لغضبة، ومعارض له.. فالمؤيد له هو ذلك الذي يرفع يده منشداً شعراً كله أصالة تتردد عذوبة أنغامه ولحن جرسه بين أعمدته وبحوره وأوزانه، ويتزايد تراقص المحسنات بين قوة السبك وجودة العبارة، وتلاحم الأبيات ووحدة القصيدة، وترنم المفردات الجميلة التي ينتظمها سلك كل بيت من أبيات القصيدة متناغمة مع أصداء القوافي التي تتلألأ بإشراقة البديع فيها، وتتعطر بدفقات نور البلاغة في جوانبها وهو - وأعني بذلك المؤيد غضب الشعر - يجعل الشعر محقاً في غضبه، بل يزيد على ذلك ويقول: إن لم يغضب مما فعله المتشاعرون والعابثون بمملكته فمتى يغضب؟

أما المعارض لغضب الشعر لذلك الذي عاث في حماه وهدم في دعائم مبناه، وألحق الضرر بكل جهاته، وجعل من نفسه معولاً لتقويض أركانه، ليقيم على أنقاضه خزعبلات لا تحكمها قافية ولا تخضع لميزان اتفق على عدل سلطانه وظهر حسن بيانه في قصائد أملى عليها رسوخها وثبوت قدمها على صفحات الزمان أن تستفز ما يسمى اليوم بالشعر الحر أو المنثور أو الحداثي.

ومن الشعراء المعاصرين الذين غضبوا لغضب الشعر الشاعر نزار قباني، وذلك في جملة أبيات من قصيدة قالها في الذكرى الثانية لرحيل الأديب الناقد، والذي أطلق عليه اسم (عميد الأدب) طه حسين من تلك الأبيات قوله:

عد إلينا فإن ما يكتب اليوم
صغير الرؤى صغير المعاني

ذُبح الشعر، والقصيدة صارت
قينة تشترى ككل القيان

جَرّدوها من كل شيء وأدموا
قدميها باللف والدوران

لا تسل عن روائع المتنبي
والشريف الرضي أو حسان

ما هو الشعر؟ لن تلاقي مجيباً
هو بين الجنون والهذيان

ولقد أجاد الشاعر الكبير علي الجارم حينما وصف أولئك الذين يزعمون أنهم مجددون بالغربان الناعقة، وأنهم قد ألبسوا الشعر العربي الأصيل ثوباً غربياً لا ينسجم مع هيئته وذوقه، وذلك بقوله من قصيدة له يرثي بها الشاعر أحمد شوقي:

سكن العندليب في وحشة الدو
ح وغنت نواعق الغربان

جلبوا للقريض ثوباً من الغرب
ولم يجلبوا سوى الأكفان

ثم قالوا مجددون فأهلاً
بصناديد أخريات الزمان



يبقى العتاب تراثاً... إذا ضُمِّن أبياتاً!!

والعتاب بصفة عامة، وكفن معرفي من فنون الأدب لا يختلف في أسلوبه من حيث الظرافة فحسب وإنما يختلف بحسب اختلاف ثقافة وآداب المتعاتبين، بل يختلف بحسب مستوياتهم العقلية ومفاهيمهم الاجتماعية.

والعتاب يخضع بطبيعة قوته وشدة تأثيره لما يكون عليه المتعاتبين من عادات وتقاليد، فلو أن حكيماً من الناس عاتب شخصاً ذا مزاج شرس أو حاد، بأسلوب أدبي فإنه لا يأمن أن يتلقى رداً قاسياً ينم عن غضب وحمق وسوء أدب، وذلك بعكس الأديب الخلوق والشاعر المتأدب، إذا عاتب أي منهما شخصاً يماثله من حيث رجاحة العقل واتساع الثقافة، وامتلاك الحلم، إذ يكون للعتاب بينهما قيمة أدبية، ومسلك خلقي حميد.

أما معظم القراء فإنهم يستمتعون بأساليب عتاب كلا الفئتين حيث يعتبرون ذلك فكاهة أدبية ليس إلا، ولعل القليل منهم هو الذي يدرك فهم مقاييس درجات العتاب في نفوس المتعاتبين.

وإذا ما صرفت النظر عن إيراد شاهد للعتاب الذي يحصل فيه، أو يقوم بالأصح على عدم تكافؤ المتعاتبين في هذا الموضوع، فإنه من المستحسن أن أورد نموذجاً لعتاب المتكافئين، وذلك مثل ما حصل بين فضيلة الشيخ عبد الغفار دلاش، وبين الشاعر حمزة إبراهيم فودة، وسبب ذلك أن الشيخ دلاش بعث بقصائد لفودة يأمل نشرها فتمهل فودة في نشرها فأرسل دلاش يعاتبه بأسلوب شعري، منه قوله:

ما الصمت شأن البلبل الغريد
فلم السكوت وقد أتاك قصيدي

إن السلام من الشريعة سنة
والرد فرض بالغ التأكيد

لو أنني لاقيت منك إجابة
تابعت ودي دائماً بجديد

لكنني لم أسمع لتجاوب
فحبست في نفسي رجيع نشيدي

فرد حمزة إبراهيم فودة رداً شافياً يمحو العتاب ويبرئ الصواب. منه قوله:

في الصمت ودّ شاغل لمريدي
ومن التحرك ما يمدّ قصيدي

ولئن شُغلتُ فما شغلتُ بغيركم
لكن حُبّي بالغ التأكيد

فأنا سعيد بالعتاب لأنه
ودّ تبدّى فاستعاد نشيدي

ولسوف تقرأ ما بعثت منسّقاً
فتردّ لي من مبدع وجديد

ومثل هذا العتاب يأخذ مكاناً في صفحات الأدب التي ستصبح من بعد تراثاً يرسم حاضرنا في صورة مشرقة تتعاقب قراءتها الأجيال اللاحقة.



شخصية العواجي في قصيدة أعجبتني!!

إن القصائد التي تجري قوافيها في توجيه معين، يكون لها ذوق خاص، وتنتصب أمام عين القارئ بنمطها المتميز، وكأنها تقول للقارئ، إيّاك أن تمر عليّ مرور الكرام، بل قف عليّ وقوف المتأمل فيما أحمله من معان تسمو بحضرة من أوجه إليه، وتصف حجم مكانته بين مجتمعه وذويه، والذي يحظى بتلقي مثل تلك القصائد خاصة إذا كانت صادرة عن شاعر متجرد يترفع عن أساليب التملق، واختراع عبارات التزلف، فإنه يعد من عُلْية قومه، ومن أعيان مجتمعه، وأن مكانته الأدبية قد مهدت الطريق إلى وصول تلك القصائد على أعتابه دونما عناء أو مشقة أو تعب.

والحقيقة أن مجتمعنا المعاصر لا يخلو من الشخصيات التي يجب علينا الإشادة بأصحابها وبما هم عليه من أدب، وشهامة، وتواضع، وصفاء فكر، وقوة إرادة، بل إنها ـ والمعنى بذلك طبعاً لشخصيات ـ كثيرة والحمد لله، والافتخار بوجودها شيء يمليه واجبها علينا.

ولعل أفضل وسيلة للبوح بهذا الواجب تأتي في هيئة قصائد توجه إليهم، لأن القصائد قد أثبتت بذاتيتها أنها أبقى على الدهر، وأنها سجل تتعاقب على قراءته الأجيال، جيلاً بعد جيل.

وفي هذه العجالة، أقف عند شخصية حظيت بقصيدة في الآونة الأخيرة هي شخصية معالي الدكتور الشاعر إبراهيم محمد العواجي، أما الشاعر الذي أهداها إليه عبر الجريدة المسائية في عددها ٤١٩٤ الصادر يوم الثلاثاء ١٣ رجب عام ١٤١٦هـ فهو نايف رشدان العتيق، من تلك القصيدة قوله:

مرحى ستخلد أيها الغريد
قدر العظيم، مدى الحياة خلود

مرحى لشمس لم تغب لكن علت
تمضي هنالك دائماً وتعود[1]

سيظل يصدح منه ألف مرنم
عزف الهوى فتلقفته البيد

ومنها قوله:

يا شاعراً أجرى الحروف سخية
وأطل يدفع زيفها ويذود

غَرِد وفي الآفاق يرقص نبضه
والقافيات مواكب وشهود

ومنها قوله:

تبقى فعالك حيث كنت زكية
فالود يعبق والغصون تميد

ومنها قوله:

يا راحلاً من داره لدياره
ما غاض منك المنتهى الممدود[2]

إن التجارب للمسافر حكمة
وجوابها للحائرين سديد

والقصيدة طويلة فهي تبلغ نحواً من ٢٥ بيتاً.

---

(١)و(٢) يشير إلى الموافقة على طلب العواجي الإحالة إلى التقاعد. وأنه بإحالته إلى التقاعد إنما انتقل من ميدان العمل الوظيفي إلى ميدان الأدب وعالم الشعر.

لماذا لا نخصص يوماً من أيام السنة للتفكير؟!!

وطالما أن عالمنا المتحد قد أخذ بمبدأ تخصيص يوم من أيام السنة لذكرى انطلاقة أي عمل له ارتباط بحياتنا الاجتماعية، وذلك كيوم الصحة العالمية، ويوم محو الأمية، وما إلى ذلك من الأيام التي وُقف النشاط فيها على التذكير بما خصص له.

فلماذا لا نجعل لمجتمعنا الصغير يوماً من أيام السنة نطلق عليه اسم: (يوم التفكير) ونخص من ساعاته ساعة نحمل الناس فيها جميعاً على تعطيل كل شيء ملموس ومتعلق بالمادة، ونطالبهم بالانصراف بأفكارهم إلى التأمل في حلول مشكلاتهم أو التفكير في مساعدة غيرهم على حل مشكلاتهم إن لم يكن لديهم مشكلات خاصة بهم.

ويقيني أنه إذا كان هناك ساعة متفق عليها للتفكير في حل المشكلات فإنها سوف لا تمضي إلّا وكل قد حدَّث نفسه بالسعي لحل مشكلته مع الآخرين حديثاً يحمله على مباشرة العمل، فتتوافق الآراء، وتتلاقى وجهات النظر، ويحدث الاتفاق على إزالة الشوائب عن النفوس إزالة تجعلها طاهرة نقية تنبذ الحسد وتمقت الشحناء وتزرع المحبة.

وحديث النفس إذا صدق معه صاحب النفس وخلصت النية في رفض التباغض ونزع الحزازات من الصدور يثمر بالمودة ويرسي قواعد التصافي، ويجعل الأيدي واحدة والقلوب مؤتلفة، فلا تغيب شمس ذلك اليوم الذي نخصصه للتفكير إلّا ونحن كما ولدتنا أمهاتنا نقاوة، وصفاء، وطهارة، وبراءة.

ولننشد في ذلك اليوم الذي نختاره للتفكير فيما بيننا من مشكلات، قول الإمام الشافعي.

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً
إن بَرّ عندك فيما قال أو فجرا

لقد أطاعك من يرضيك ظاهره
وقد أجلك من يعصيك مستتراً

وقول الشاعر القروي:

رب ذنب محوته باعتذاري
وحملت الورى على إكباري

وإذا قيستِ الفضائل فاقت
كرم العفو جرأة الإقرار

وقول محمد بن زنجي البغدادي:

إذا اعتذر الصديق إليك يوماً
من التقصير عذرَ أخٍ مقرٍّ

فصنه عن جفائك واعف عنه
فإن الصفح شيمة كل حر

ولنجعل نياتنا صادقة في التفكير حتى ننجح في مسعانا لحل مشكلاتنا، منشدين ما قاله الشاعر الكاظمي:

من أخلص النيات كان لقوله
وقعٌ وكان لفعله تأثير

إذا كان سعي المرء سلّم قصده
فإن بلوغ القصد لا يتعذر



تعانق الأبيات في الاتفاق على بعض الملاحظات!!

وكثيراً ما تتعانق أبيات الشعراء معلنة اتفاقهم في الرأي على ما يبدو لهم من ملاحظات يكون لهم نصيب في معالجتها.

ومما يلفت الانتباه أن بعض الشعراء يتبادلون المداعبات فيما بينهم، وفي كثير من الأمور التي يناقشونها فتأخذ مناقشتهم الدعابية طريقها إلى الحلول الصحيحة التي ينشدها مجتمعهم.

وإذا ما نظرنا إلى تعانق الأبيات في الاتفاق على بعض الملاحظات نجد أنها وإن كانت في ظاهرها في بعض الأحيان دعابية، ترسم في كثير من المناسبات علامات استفهام تنم عن ملاحظات تلامس الواقع ملامسة لا يجد السكوت عليها سبيلاً.

وإذا تجاذب شاعران ملاحظة ما على حالة لها مساس بالحياة الاجتماعية، فإنّ استعراضهم لها كثيراً ما يصاغ بأسلوب الدعابة الممزوجة بالفكاهة، فيعطيها طلاوةً وحلاوةً لدى القارئ بصفة عامة، ومفهوماً خاصاً لدى المعنيّ بتصحيح الملاحظة التي كانت مدار المداعبة.

وقد تكون المداعبة حول مفهوم الملاحظة المطروحة على هيئة عرض ونقاش وتبادل آراء تُعرض في صورة مبتسمة أمام من يملك تصحيحها، وذلك مثل ما دار بين أحد المدرسين الذي كتب إلى الشاعر محمد سعد المشعان بأبيات يشكو إليه فيها من سوء حال مبنى المدرسة التي يعمل بها. من أبياته قوله:

أيـــن مـــن الــحـــر الـــمـــفـــر

رحـــمـــاك يـــا رب الـــبـــشـــر

ومقامنا ببناية
للحر فيها مستقر

فإذا شكونا جاءنا
مستعجلاً، لفت النظر

فأجاب الشاعر المشعان بأبيات عانقت أبيات المدرس بروح تلتمس من وزير المعارف الدكتور محمد بن أحمد الرشيد النظر في الأمر، وقد نشرتها جريدة «الرياض» في عددها ١٠٠٤٥، يوم الاثنين ٣ شعبان سنة ١٤١٦هـ منها قوله:

الصبر إن الصبر قد
يوهي مع الوقت الحجر

إن كان مبناكم لمد
رسة فقد نفذ القدر

وقبلتم المبنى بإيـ
جار فكان لكم مقر

فلم التذمر أيها الأ
ستاذ والدنيا صور

أعطوا (الرشيد) الوقت سو
ف ترون سيرة ذي نظر



أنت والناس!!

إذا أردت أن لا تهون على أحد من الناس فلا تطلب إليه شيئاً مما في يده، وإن اضطررت إلى مداخلة الناس فاعلم أن الناس ليسوا متناظرين في أخلاقهم وخصالهم كما هي الحال في تشابه أجسامهم.

يقول الشريف الرضي:

وما الناس إلّا واحد غير أنهم

تفاوتُ منهم في الفعال الطبائع

وإذا أردت أن تضع نفسك موضع ثقة الناس بك، فالفظ من لسانك النميمة وقول الزور، وإن لم تفعل فإنك غير معصوم من إساءتهم إليك.

وإلى ما يقرب من هذا المفهوم التعاملي مع الناس، نبه الشاعر ابن هرمة بقوله:

إذا أنت لم تأخذ من الناس عصمة

تشدّ بها في راحتيك الأصابع

شربت بطرق الماء حيث وجدته

على كدر واستبعدتك المطامع

وإذا أردت أن تكسب صداقة الناس فإنه يلزمك لذلك أمور كثيرة، منها: أن تبش في وجوههم، وأن تحترم كبيرهم، وتتواضع لصغيرهم، ومع هذا فإنه لا يستبعد أن تخفق في كسب ودهم إن لم تكن المادة سنداً لذلك وعوناً لك، وإذا لم تملك من الوسائل ما تستطيع استمالتهم بها، فتمثل بقول الشريف الرضي:

الناس حولك غربان على جيف
بُلْهٌ عن المجد إن طاروا وإن وقعوا

فما لنا فيهم إن أقبلوا طمع
ولا عليهم إذا ما أدبروا جزع

وإذا أردت أن تخالط الناس وتتعامل معهم، وهذا شيء لا بد منه، فاعلم بأن ذلك يحتاج منك إلى ثمن كثير يتمثل في المقدرة على التكيف معهم بمسايرتهم من قبيل الموافقة أو المصانعة، ومجاراتهم عندما ينقلهم زمانهم من حالة كنت ترضاها عنهم إلى حالة تقرب من انعدام فائدة معاملتهم.

يقول الحسين بن الوزير المغربي:

أرى الناس في الدنيا كراع تنكرت
مراعيه حتى ليس فيهن مرتع

فماء بلا مرعى ومرعى بغير ما
وحيث ترى ماءً ومرعى فمسبع

وإذا أردت أن تكون الصديق الذي تشترى صداقته ولا تباع، ويحفظ وده ولا يضاع ويكتم سره ولا يذاع. فأيقظ هاجس الحرص على عدم الطمع بما في يد من يشتري صداقتك، يقول الشاعر القطامي:

فدع أكثر الأطماع عنك فإنها
تضر وأن اليأس لا زال ينفع



من الحيوانات والنباتات والجمادات
التي كلمت النبي عليه أفضل الصلوات والتسليمات

ومعجزات سيد المرسلين وإمام المتقين، وأصدق المتحدثين كثيرة، ورد ذكرها في أحاديث ذات أسانيد صحيحة، ولا أريد هنا محاولة إحصائها بقدر ما أريد ذكره مما يتعلق بتكليم بعض الحيوانات والنباتات والجمادات له ﷺ.

وقد كان للشعراء الإسلاميين اهتمام بالغ بتضمين هذه المعجزات في مدائحهم للنبي ﷺ.

فمن الحيوانات التي كلمته عليه الصلاة والسلام: الضب، والحمار، والذئب، والبعير، والظبي، وهذه جميعها قد ذكرها أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر الوصابي الحبيشي المتوفى سنة ٧٨٢هـ صاحب كتاب «البركة في فضل السعي والحركة» في منظومة له. وذلك بقوله منها:

وكلمه الحمار، وصاح ضب
بأن المصطفى هاد تهام

وكم ذئبٍ بنصح الخلق نادى
ونزه أحمداً من كل ذام

وخر له البعير وكلمته
ظباء الوحش في حسن الكلام

وظلله الحمام بيوم فتح
فنادى اللّه بارك في الحمام

ومن دلائل معجزاته النبوية ﷺ التي تتحقق عن طريق تكليم الجماد والنبات له ﷺ، والتي أشار إليها الوصابي في منظومته آنفة الذكر قوله:

نـبـيٌ إن دنـا مـن صـم صـخـر
لـقـاه الـصـخـر يـدعـو بـالـسـلام

وحـن الـجـذع مـن شـوق إلـيـه
حـنـين الـنـوق من وجـد الـغـرام

وحـدث جـابـر أن قـد رآه
دعـا الأغـصـان من بـعـد الـسـلام

فـجـاءتـه تـخـد الأرض خـداً
إلـى أن قـال عـودي بـالـتـئـام

وليست هذه كل معجزاته ﷺ، أو هي أهمها، فهناك القرآن الذي أعجز الفصحاء أن يأتوا بآية من مثله، وهناك الإسراء والمعراج، وما كان يخبر به قبل وقوعه فيقع، وما تنبأ به وأخبر بما سيقع بعد مماته من أشياء أصبحت مشهودة الآن.

والذي يقرأ سيرته عليه الصلاة والسلام يجد أنها قد ألمت بالشيء الكثير من نبوءاته ومعجزاته، لذا فإنني أوصي كما أوصى غيري بقراءة سيرته عليه الصلاة والسلام.



لنعمل كالنمل، ولنعط كالنحل!!

والعمل الحقيقي لا يكون إلّا بنية مصحوبة بحركة عمادها المثابرة وبذل جهد يعرق منه الجبين.

والعطاء لا يكون إلّا من حصيلة مستثمرة من العمل.

أما نوعية العمل فليس تحديده بمهم بقدر ما يكون شريفاً يبتعد بصاحبه عن ذل المسألة، ومتواصلاً يحقق له ما يطمح إلى تحقيقه.

قال ﷺ: «من سعى على نفسه ليعزها ويغنيها فهو شهيد، ومن سعى على والديه ليعفهما فهو مجاهد في سبيل الله، ومن سعى على عياله فهو في سبيل الله، ومن سعى مكاثراً فهو في سبيل الشيطان».

وإذا ما أردنا أن نطرح الكسل جانباً ونأخذ بالصبر حينما نزاول عملاً يؤمن لنا لقمة العيش فلا بدّ أن نتخذ من النمل مثلاً في جده واجتهاده وتعاونه وادخاره وصدق تصحيحه على بناء كيانه.

وإذا ما أردنا أن نعمل ونعطي مما اكتسبناه من عملنا فلنجعل من النحل قدوة لنا.

قال عليه الصلاة والسلام: «إن الله يحب المؤمن المحترف» وروي عنه ﷺ في حثه على طلب الرزق أنه قال لابني خالد: «لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما فإن الإنسان ولدته أمه أحمر ليس عليه قشرة ثم يغطيه الله ويرزقه».

وممن نظم من الأشعار في الحث على طلب الرزق، والدعوة إلى الاعتبار ببعض المخلوقات التي تعمل بكل جد ونشاط دونما كسل أو

ملل يعتريها: الشاعر سيف المري وذلك بقوله من قصيدة نشرتها له «مجلة المنتدى» في عددها ١٤٩ رجب عام ١٤١٦هـ.

انظر لمملكة النمال وجهدها
دأبت على صغرٍ تجدّ وتبذل

أرأيت تنظيماً وأعجب منظر
منها وكيف لرزقها تتوصل

وانظر إلى النحل الذي من شهده
العسل المصفى والشفاء الأمثل

وإلى الطيور غدت لتكسب رزقها
في الأرض ساعية تطير وتنزل

بين التوكل والتواكل رتبة
لا تغفلوها فاعلموا وتوكلوا

كل النبيّين الكرام تنزهوا
من غير كسب يديهم لم يأكلوا

داود قد صنع الدروع بكفه
السابغات بها يرد الصيقل

ونبينا الهادي التجارة كسبه
إذا كان فيها بارعاً لا يُعْدل

والقصيدة أطول من ذلك فهي تبلغ ثمانية عشر بيتاً تقريباً.



الحركة والعمل، من دعائم عزة النفس!!

يسوق أهل الرأي والحكمة الأمثلة تلو الأمثلة طمعاً في حث بني قومهم على مواصلة السعي في الدنيا وعدم التهاون عن أي مطلب شريف.

كما أن لهم وقفات تذكيرية بأن إتقان الحرف والأعمال اليدوية وممارستها هو من أقوى الدعائم التي يعتد بها المجتمع بصفة عامة ويسمو بها الفرد بذاته.

ومع ما يسوقونه من أمثلة يصفون تجارتهم الشخصية ليؤكدوا بها أن أساس المجد وبلوغ الغاية التي يحصل بها عزة النفس وكرامتها هو العمل والحركة الدائبة والأخذ بجميع الأسباب المؤدية إلى الغرض المنشود.

وإذا ما ألقينا نصائح أهل الرأي في مجال مباشرة الحياة بالحركة والعمل على تحقيق الهدف جانباً، وأردنا التحقق من ذلك بالرؤية المباشرة فإنه بمجرد نظرة عابرة على من نعايشهم ندرك بها أن الناجحين في حياتهم هم الذين غالبوا كل صعب اعترض طريق حياتهم فغلبوه باطّراح الكسل والخمول والاستمساك بالجد في العمل ومواصلة النشاط الحركي والفكري المؤدي إلى الغاية التي كانوا يتطلعون إليها.

وإذا ما التفتنا نحو الفاشلين لنبحث عن أسباب فشلهم وجدنا أنهم آثروا الراحة والكسل والخمول على الحركة والعمل والأخذ بأسباب النجاح وملاحقة الأمل بالفعل والعمل.

وإذا كان لا بدّ من الاستشهاد بما قيل في هذا المجال من

أقوال، فإن تقصيها يشكل مؤلفاً لا موضوعاً كهذا الموضوع المطبوع بالاختصار، ولكن، وللاستدلال على وفرة ما قيل في ذلك من أقوال، أنقل جزءاً يسيراً مما قيل شعراً.

يقول الشاعر المعاصر سيف المري من قصيدة له جعل عنوانها «شرف العمل» ونشرتها مجلة «المنتدى» في العدد ١٤٩ رجب سنة ١٤١٦هـ.

جيل الشباب الصاعدين تأملوا
اللّه قال بآية: وقل اعملوا

والمصطفى الهادي محمد حثنا
وبذاك رسل اللّه قبلاً أرسلوا

نُجزى على أعمالنا وبسعينا
كان التفاضل بين من هم فُضلوا

من يحملون على ظهورهم الحصى
خير من المتقاعسين تسوّلوا

من يزرعون يحصدون ثمار ما
زرعوا وخاب الخاسرون تكاسلوا

وفيها يوصي الشباب على العمل في شتى المجالات كل حسب رغبته وطاقته، وميوله، وذلك بقوله:

لا تخجلوا من أي عمل به
شرف ومن عيب البطالة فاخجلوا

وبلادكم وهبت لكم من خيرها
ثمر العطاء يفيض منه المنهل

ردوا لها هاجس الصنيع مضاعفاً
وببذلكم وبجهدكم لا تبخلوا

العلم.. وبالعلم!!

لقد صنع الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي المتوفى سنة ١٣٥٤هـ قصيدة طويلة نسبياً إذ تبلغ نحواً من واحد وثلاثين بيتاً، تحدث فيها عن العلم وما له من فوائد لا حصر لها وما له من قيمة اجتماعية في حياة الفرد والمجتمع، مع التركيز على الإشارات العديدة إلى الأشياء التي حققها ويحققها العلم في مجالات الطب والصناعة والخدمات العامة كالكهرباء والبث الإذاعي وغير ذلك من الأشياء التي تخدم الإنسان وتوفر عليه جهده.

ورأى الزهاوي في العلم أنه ثروة يجب العناية بها والمحافظة عليها حتى لا يحل الجهل الهدام محلها:

العلم ثروة أمة ويُسار
والجهل حرمان لها وبوار

ومن الإشارات التي نُوّهتُ عنها ذكر ما للعلم من يد في تمهيد الطرق وهد الجبال وشق الأنفاق وإضاءة الليل.

العلم قد دكّ الجبال وهدّها
وأضاء جنح الليل فهو نهار

واستنطاق الأحجار، وكان يقصد بذلك المذياع.

بالعلم أطلعت البلاد كواكباً
بالعلم صارت تنطق الأحجار

ويشير إلى ما للعلم من دور فيبث الأخبار من الإذاعة.

بـالـعـم قـد نـاجـى مـقـيـم نـازحـاً
وعـلـى الأثـيـر تـمـشـت الأخـبـار

ويذكر ما توصل إليه العلم من اختراعات شملت السيارات التي تطوي الأرض وتقرب البعيد والطائرات والغواصات وجميع وسائل التنقلات.

بـالـعـلـم أدنى الـنـاس شـقـة أرضـهـم
بـالـعـلـم غـاصـوا في الـبـحـار وطـاروا

بـالـعـلـم قـد طـالـت وأدركـت الـمـنـى
أيـد عـن الـغـرض الـرفـيـع قـصـار

ويمضي في تعداد المنجزات العلمية قائلاً:

خـدم الـبـلادَ الـكـهـربـاءُ وقـبـلـه
خـدم الـمـعـامـل في الـبـلاد بـخـار

ولكن من أين يغترف العلم وتقتطف ثماره؟ والإجابة على هذا السؤال تأتي بصريح العبارة في هذا البيت.

الـعـلـم يـنـمـو في الـمـدارس دوحـة
حـيـنـاً وتـقـطـف بـعـد ذاك ثـمـار



تعادلية بين الواقع والفلسفة في قصيدة!!

وعندما تهب العاصفة في نفس الإنسان، وتدمي بعتوها سلطان الهدوء، فإنَّ شيئاً ما لا بد أن يتقلقل في داخله، فتتحرك الفلسفة خارج نطاق الضمير، وتحلق الحقيقة في سماء العقل فيتخذان من الإنسان سفينة يجوبان بها محيط الواقع وأعماقه، لكنهما يتنازعان القيادة بادعاء كل منهما الخبرة بأعماق البحر وسواحله. فالفلسفة تبحث عن عمق يماثل عمق النفس التي تواجه العاصفة لتعصف وصفاً ينسجم مع تكيف النفس في جميع حالاتها.

أما الواقع فيريد معرفة العمق بالقياس وبلغة الأرقام، لأنه يرفض التخمين الذي تجد الفلسفة من زاويته مدخلاً ربما أحالت من خلاله الحقائق الملموسة إلى ظنون وأوهام يشد بعضها بعضاً فتمضي قاطعة اليقين بأداة الشك لدى من تتداخل لديه الحقيقة مع الخيال.

والكثير من الشعراء لهم يد في قيادة تلك السفينة، إذ باستطاعتهم التوفيق بين الفلسفة والواقع في آن واحد، حيث يجيد تحوير المعنى بأسلوب لا يبتعد عن ملامسة ما في نفوس غيرهم، فهم ينهون ويأمرون ويحبذون ويكرهون، ويرغبون ويحذرون، وكأنما هم مقياس الحرارة الذي يخضع لظروف الطقس والمناخات الجغرافية.

وإنك لترى الشاعر في القصيدة الواحدة ينقلك من حالة إلى أخرى، وذلك وفقاً للظروف التي أملت عليه القصيدة، وللحالة النفسية التي استقبلها بها.

والشاعر السعودي المعاصر الدكتور عبد الله الصالح العثيمين أنشأ

قصيدة تحت عنوان «لا تسلني» وفي نفسه أشياء مستترة تنتظر منه أن يبوح بها بأسلوب فيه تعادلية واقعية بين الفلسفة والواقع، من تلك القصيدة قوله:

أيها الساري وأشواك الردى
ملأت كل طريقٍ قد سلك

لا تسلني عن خفايا ألمي
إنما آلمني ما آلمك

الرؤى السوداء قسم بيننا
والأسى المرُّ غذاء مشترك

ومنها قوله:

كل ما حولي طلاء زائف
للدماء الطهر والصدق سفك

لبس العاصي جلابيب التقى
وبدا الشيطان في زي ملك

ومنها قوله:

وفتى قد كان من مبدئه
حرمة التعبير أن لا تنتهك

حينما نال مكاناً بارزاً
إن تخالف رأيه فالويل لك

وبليغ يدعى الزهد وإن
غفلت عيناك عنه أكلك



ابن أبي حصينة يصنع ٧٥ بيتاً في ليلة!!

وابن أبي حصينة هو الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجبار المشهور بابن أبي حصينة السلمي ينتهي نسبه في بني سليم، وبنو سليم قبيلة يتصل نسبها بعمود النسب العدناني، ولد ابن أبي حصينة قبل سنة ٣٩٠هـ وتوفي سنة ٤٥٦هـ وقيل ٤٥٧هـ.

وقد توقف ابن أبي حصينة شعره على امتداح الأمراء من المرادسة الذين سيطروا على إمارة الشام وانتزعوها من المغاربة المصريين الذين كانوا مسؤولين عن شمال الشام بعد انقراض الدولة الحمدانية من سنة ٤٠٦هـ إلى سنة ٤١٥هـ.

قلت: إن ابن أبي حصينة قد خص شعره أمراء المرادسة وأوقف أكثره على أبي علي ثمال بن الأمير علي بن مرداس، وكان شاعراً لا يشق له غبار في ميدان الإبداع الشعري، واصطحاب المبالغة في كثير من أبيات شعره، أما البلاغة والحكمة فقد قرب فيهما من القمة، كيف لا، وشعره قد أطرب أبا العلاء المعري إطراباً جعله يشرحه ويعلق عليه.

والعجيب من أمر شاعرية واستجابة قريحة ابن أبي حصينة أنه اقترح عليه الأمير ثمال عمل أربع قصائد في ليلة فعملهن وكان قوام أبياتهن ٧٥ بيتاً، الأولى: ٢٧ لامياً والثانية: ١٧ بيتاً سينياً، والثالثة: ١٤ بيتاً لامياً، والرابعة: ١٨ بيتاً رائياً، ولما أصبح وأنشدهن بحضرته العالية، أجزل له العطاء وأحضر له في جملة ذلك سفطاً من ملابسه السنية فلبس ما فيه بين يديه، وأقطعه قرية تعرف بأعْزال زيادة على ما كان معه من الأقطاع في ذلك الوقت.

ولعله من المناسب أن آتي على ذكر أبيات من إحدى القصائد الأربع، ولتكن ذات القافية اللامية، وهي الأولى منهن لنستشرف تلك الشاعرية التي استدرت كف ثمال وحلبت أشطر جوده.. منها قوله:

أبا قلبه من لوعة الحب أن يخلو
فلا تعذلوا من ليس يردعه العذل

ولا تطلبوا منّي مدى الدهر سلوةً
فما يرعوي منكم فؤادي ولا يسلو

ضَنِيْتُ فلو أني على رأس شعرة
حُمِلْتُ ومالتْ لا ينوءُ بها الحمل

ومنها قوله:

فأقسم لولا أنت لم يُخْلَق الجوى
ولولا أبو العلوان ما خلق الفضل

فمتى أتعب البيض الصوارم في العلى
وجرب فيها ما يَمُرُّ وما يحلو

ومنها قوله:

نظمتُ لك الدر الذي ليس مثله
وأنت الذي ما في الملوك له مثل

بلوت القوافي عند من لو بلوته
بغير القوافي لابتهجن بما تبلو

ولما تخيرت المديح أو الكرى
حلا في فمي مثل الرقاد الذي يحلو



جنّي المهنة!!

وإذا ما مهر إنسان في مهنة من المهن سواء الحركي الذي يتطلب جهداً يدوياً وقوة بدنية أو فكري يتطلب عقلاً مرشداً.. فإنه يبدي للناس افتخاره واعتزازه بذلك، وربما رغب إلى غيره في أن يمتدحه ويشيد بمهارته في إحكام صناعته، ويشهد له بجودة عمله وفنّيته.

وإذا ما قصّر المادحون في مديحه لأسباب لا تتعلق بعدم أهمية عمله ونتاج نشاطه. ولكن لغفلة أو لتعمد الصفح عن ذكره استجابة لواقع الحسد الذي يولده تفوقه عليهم. خاصة إذا كان يجانسهم في المهنة، ويخشون بروزه واتجاه أنظار الناس إليه.

والشعراء هم من الفئات التي يتكتم بعضهم على مديح البعض الآخر، وإن شهد بعضهم الآخر بجودة الشعر فإنه لا يفضله على نفسه، وإن كان الواقع يشهد بذلك.

ونتيجة لهذا التحاسد القائم بين الشعراء نجد أنهم يمتدحون أنفسهم بأنفسهم، بل إن بعضهم يصف نفسه بالمرعب، ويطلق على نفسه ألقاباً مرهبة، وقد تصل درجة تخويف بعضهم بعضاً إلى الادعاء بأن له شيطاناً يوحي إليه الشعر، ويفخر بأن له قرين من الجن يساعده على قول الشعر متناسياً بأن الأنس أشعر من الجن وأسرع فهماً وأقوى إدراكاً، ولو لم يكونوا كذلك لما قدموا على الجن في كثير من الأمور التي لها ارتباط بحياتهما، قال تعالى في تعجيز المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومن الشعراء من يزيد في التأكيد على ذلك فيذكر اسم قرينه، وربما صاغ مقاولة بينه وبين قرينه مدللاً بها على حقيقة وجود ذلك القرين.

ومن الشعراء من يصف نفسه بجني الشعر مفتخراً بذلك ومتعالياً بتمكنه من بدع القوافي، وذلك مثل الشاعر ابن أبي حصينة واسمه أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد السلمي الذي قيل: إنه توفي عام ٤٥٦هـ الذي ختم إحدى قصائده التي امتدح بها الأمير ثمال بن الأمير علي بن مرداس بقوله:

وواعجباً نُثني على فضل غائب
ونترك أن نُثني على من نشاهده

إذا شئت طرد الفقر فاحلل بربعه
فإن يُعزّ الدولة القَيْلَ طارده

أخو كرم لم يدنس اللّه عرضه
بلؤم ولم تُخلط بخلف مواعده

شرائعه شتى فإما يمينه
وإما بواطيه وإما موائده

إذا قلتَ شعراً فاحترز منه إنه
خبير إذا لم ينقد الشعر ناقده

فما قلتُ شعراً قط إلّا وهبتُه
وإني لجنّيّ القريض وما رده

وما هو إلّا واحد في زمانه
نظمتُ له الدر الذي أنا واجده

فــلا زال مــرتــاع الــفــؤاد عــدوه

ومُـلـتـهـب الأحشاء بـالـغـيـظ حـاسـده

والحقيقة أن الذي يقرأ ديوان ابن أبي حصينة يوافقه على أنه جنّيّ الشعر فعلاً، وأنه قد عرف كيف يجعل من الشعر سحراً.



صورة من صور انتصارات الأسلاف

والأمة التي تصدق في عقيدتها الإسلامية صدقاً يحملها على معاداة أعدائها، ومقاتلة من تحدثه نفسه بالإساءة إليها وخذلان معتنقيها، يكون حليفها النصر على أعدائها، وإن كان عددها وعتادها أقل من عدد وعتاد أعدائها.

ومن ذا الذي يهزم فئة الله قد وعد بنصرها ما دامت تذب عن محارمه وحدوده، وتطبق سنن الله وشرائعه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧] هكذا جاء النص القرآني الكريم، إنه نصر من الله يأتي جزاء لمن يستقيم على أمره ويعمل بمقتضى شرعه في الدفاع عن حدوده.

وصور انتصارات المسلمين على أعدائهم لا تحصر ولا تعد، وقد أشرقت بها صفحات التاريخ التي تتعاقب على دراستها الأجيال المسلمة جيلاً بعد جيل، وتعتبرها مثلاً يُقتدى به في مواصلة مجابهة أعداء الله الذين يتربصون بنا الدوائر، ويبحثون عن أقصر السبل التي يصلون بها إلى إفساد عقيدتنا التي هي قاعدة وحدتنا ومرتكز جمع شملنا ومنطلق قوتنا، وعنوان جهادنا.

ومما سجل على صفحات التاريخ من انتصارات المسلمين على أعدائهم صورة وقعت أحداثها عام ٤٢٦هـ وملخصها، أنه كان هناك اتفاق بين ملك الروم (أرمانوس) وملك البلغار وملك الألمان والبلجيك والخرز والأرمن حيث قاد (أرمانوس) ستمائة ألف جندي من الفرنجة نحو حلب بالشام فتصدى به صاحبها شبل الدولة الأمير نصر بن

صالح بن مرداس وهزم ذلك الجيش الضخم وتبعهم إلى عزاز وأسر جماعة من أولاد ملوكهم وغنم المسلمون منهم مغانم عظيمة.

وفي هذا الانتصار العظيم قال الشاعر ابن أبي حصينة واسمه الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجبار السلمي الذي قيل: إنه توفي عام ٤٥٦هـ قصيدة أنشدها شبل الدولة بظاهر قنسرين، منها قوله:

إلى نصر وأي فتى كنصر
إذا حلّتْ بمغناه الركاب

أمنتهك الصليب غداة ظلتْ
حُطاماً فيهم السَّمْرُ الصِّلاب

جنودك لا يحيط بهن وصف
وجودك لا يُحصِّله حساب

وذكرك كله ذكر جميل
وفعلك كله فعل عُجاب

و«أرمانوس» كان أشد بأساً
وحلّ به على يدك العذاب

أتاك يجر بحراً من حديد
له في كل ناحية عُباب

إذا سارت سحائبه بأرضٍ
تزلزلت الأباطح والهضاب

فعاد وقد سلبت الملك منه
كما سلبت عن الميت الثياب



قصة وأبيات

يروى أن الشاعر ابن أبي حصينة المتوفى سنة ٤٥٦هـ واسمه: الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجبار السلمي امتدح أمير حلب نصر بن صالح بن مرداس، فقال له: تمن، قال ابن أبي حصينة: أتمنى أن أكون أميراً، فجعله أميراً يجلس مع الأمراء، ويخاطب بالأمير، وقربه وصار يحضر مجلسه في زمرة الأمراء، ثم وهبه مكاناً بحلب قِبَلَ حمام الواساني فعمله داراً وعَرَّضَّها وزخرفها وتمم بناءها وكمل حالها، ونقش على الداربزين:

دار بنيناها وعشنا بها
في دعة من آل مِرداس

قوم محو بؤسي ولم يتركوا
عليّ في الأيام من باس

قل لبني الدنيا ألا هكذا
فليفعل الناسُ مع الناس

ولما تكامل بناء الدار عمل دعوة وأحضر إليها نصر بن صالح، فلما أكل الطعام، ورأى حسن بناء الدار ونقوشها، وقرأ الأبيات، قال له: كم خسرت على بناء هذه الدار؟ قال: يا مولاي ما لي علم بل هذا الرجل قد تولى عمارتها، فسأل المعمار.. فقال: غرم عليها ألفي دينار مصرية. فأحضر من ساعته ألفي دينار مصرية، وثوب أطلس وعمامة مذهبة وحصاناً بطوق ذهب، وقال له:

قـل لـبـنـي الـدنـيـا ألا هـكـذا
فـلـيـفـعـل الـنـاس مـع الـنـاس

والجدير ذكره هنا أن ابن أبي حصينة قد وقف مدائحه على المرادسة بل جميع شعره، فما حواه ديوانه ما هو إلّا مدائح في الأمير ثمال بن الأمير علي بن مرداس، بعضها يستهله بالغزل أو ذكر الأطلال أو وصف الناقة، أو ما إلى ذلك مما اعتاده شعراء عصره ومن سبقهم من الشعراء.

ففي الأمير المعز بن مرداس يقول:

رأيـت مـلـوك الأرض فـي كـل بـلـدة
وأبصرتُ ما لا يُبْصر الناسُ في الناس

وطـوّفـت فـي شـرق وغـرب وأُدمِـيَـتْ
مـنـاسـم أعـيـاسـي وآطـال أفـراسـي

فـلـم أر مـخـلـوقاً مـن الـنـاس فـضـلـه
يـزيـد عـلـى فـضـل المُـعزّ بـن مـرداس

وفي الأمير أبي علوان ثمال ابن الأمير علي بن مرداس صاغ جل قصائده ومدائحه التي منها قصيدة سينية هي من أربع قصائد قالها في ليلة واحدة باقتراح من الأمير ثمال منها قوله مخاطباً أبا علوان:

فأقسم لولا أنت لم يخلق الجوى
ولولا أبو العلوان ما خلق الفضل

فتى أتعب البيض الصوارم في العلى
وجـرب فـيـهـا مـا يَـمُـرُّ ومـا يـحـلـو



استجداء من أجل أولاد عددهم ضعف عدد الثريا!!

والكثير من الشعراء الذين يجيدون صياغة أساليب الاستجداء المؤثرة، نراهم يأتون على ذكر أولادهم، وما هم عليه من حالة تستدعي مدّ يد العون لهم، ويبالغون في ذكر صفة حالتهم بعبارات ومفردات شعرية تشد أذن السامع وتؤثر في نفسه تأثيراً يحمله على تخفيف المعاناة بما تجود به أريحيته من هبات وعطايا.

ومن الشعراء المُسْتَجْدِين من يعزو أسباب مطالبته إلى وجود صغار له أشبه ما يكونوا بفراخ الطير التي ما زالت في أوكارها وتحتاج إلى ماء وغذاء لا يؤمنه لها سواه.

ومنهم من يصف أولاده بأنهم في حالة إقعاد ومرض لا يقدرون على طلب أرزاقهم وإنما هم عالة على أبويهم.

ومنهم من يستعطف الأعيان والأمراء وأصحاب المال والأثرياء بالمبالغة في ذكر عدد أولاده مؤكداً بذلك عجزه عن إعاشتهم، وهذا الأسلوب هو ما أردت الوقوف عنده في هذا الموضوع، حيث تطالعنا أبيات من قصيدة للشاعر ابن أبي حصينة المتوفى سنة ٤٥٦هـ واسمه: الأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أحمد بن عبد الجبار السلمي المشهور بابن أبي حصينة والتي امتدح بها أمير حلب أسد الدولة عطية بن صالح بن مرداس حوالي سنة ٤٥٤هـ. ومطلعها:

سرى طيف هند والمطي بنا تسري
فأخفى دُجى ليلٍ وأبدى سنا فجر

أما الأبيات التي تعنينا في هذا الموضوع، والتي أخبر فيها ابن

أبي حصينة بأن عدد أولاده ضعف عدد مجموعة نجم الثريا، التي قيل أن عددها سبعة، وهذا يعني أن عدد أولاده أربعة عشر ولداً، فهي قوله:

أبا صالح أشكو إليك نوائباً
عرتني كما يشكو النبات إلى القطر

لتنظر نحوي نظرة إن نظرتها
إلى الصخر فجرتَ العيون من الصخر

وفي الدار خلفي صبية قد تركتهم
يطلون إطلال الفراخ من الوكر

جنيتُ على روحي بروحي جناية
فأثقلتُ ظُهْري بالذي خف من ظهري

فهب هبة يبقى عليك ثناؤها
بقاء النجوم الطالعات التي تسري

عداد الثريا مثل نصف عدادهم
ومن نسله ضعف الثريا متى يثري

وأخشى الليالي الغادرات عليهم
لأن الليالي غيرُ مأمونة الغدر



أيش.. رأسه في يدي.. ودمي في يديه؟!!

وإذا قلنا أن هناك محاولة جادة لنثر دم الشعر العمودي، وهدم كيانه بأيدي الذين يرون أنفسهم أشعر الشعراء فيما يحاولون تسميته بالشعر المنثور، أو الشعر الحر، فإنَّ واقع حال ما يقوله يحقق جدية تلك المحاولة التي يمارسونها بتظاهر ينم عن هدف يقصد به مضاهاة الشعر العمودي الأصيل، بل ربما تجاوزوا الزعم بالمضاهاة إلى الجرأة على القول بأن الشعر العمودي الأصيل ما هو إلّا شعر قديم متوارث الأصول، وأن الاستسماك به يعدّ من العناصر التي تقيد حركة التجديد، وأنه خيط رجعي موصل بتحديد الفكر، وتضييق دائرته، وكأنما هم لا يعلمون الفروق القائمة من حيث تجديد الفكر وأساليب التعبير بين شعراء العصور السالفة.

وإذا ما أردنا عرض أسلوب معين من أساليب الشعر المنثور للاستطراف ببعض ما يتضمنه من رمزيات هي في أساليب التعمية سواء، فإنّ بين يدي كلاماً سمي (قصيدة) جزأها شاعرها محمد جبر الحربي إلى مقاطع ذات عنوانات متعدّدة قامت بنشرها جريدة «الجزيرة» في عددها ٨٨٦٥، الأحد ١٤١٧/٨/٢٦هـ، وقد رأيت الاكتفاء بعرض أولها، وهو قوله:

رأســه فـــي يـــدي ودمـــي فـــي يـديـه أينا كان عند المصب القتيلْ؟

والحقيقة أن هذا المقطع يعد كلاماً موزوناً، وسائراً على نغم موسيقي جميل لو كتب بهذا الشكل:

رأسه في يدي ودمي في يديه أينا كان عنـ ـد المصب القتيل؟!

ولو أننا طرحنا قوله: «رأسه في يدي.. ودمي في يديه» كلغز وطلبنا إلى الناس حله، لتلقينا حلولاً كلها تدور حول معنى مقبوح وبعبارة ساذجة يمجها الذوق الأدبي ويأبى التلفظ بها الرجل الأديب، بل تكاد تكون من المعاني المنتقاة مما جرى بين جرير وخصومه من تهاج قبيح، أما إذا ابتعدنا عن هذا التحليل، فإن أقرب شيء نترجم به ذلك الكلام المزعوم أنه شعر، هو قولهم في المثل الشعبي: «عضت ضب»، هذا هو الظاهر لمن يقرؤه، والمعنى بطبيعة الحال في بطن الشاعر، إن شاء جعله كما قلنا، وإن شاء فسره بأبعد ما يكون عنه، ورحم الله الشاعر أحمد شوقي الذي ذكر الدم واليد في بيت هو غاية في الوضوح، وقيمة في الحماسة، وهو قوله:

وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق

وقبله بأبيات يقول:

وللأوطان في دم كل حر
يدٌ سلفت ودين مُسْتحق

والبيتان من قصيدته المشهورة «نكبة دمشق» التي قالها سنة ١٩٢٦م، ومطلعها:

سلام من صبا بردى أرق
ودمع لا يكفكف يا دمشق

أما أبو الطيب المتنبي فله منحى آخر في ذكر الدم، وذلك بقوله في مطلع قصيدة يمتدح بها سيف الدولة:

أيدري الرّبْعُ أي دم أراقا؟
وأي قلوب هذا الركب شاقا

لــنــا ولأهــلــه أبــداً قــلــوب

تـلاقـى فـي جُـسُـومٍ مـا تـلاقـى

أما الشاعر الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي المولود عام ٣٣٧هـ والمتوفى عام ٣٧٥هـ فقد كان مستعطفاً بدم مقلته في قوله:

شتّتُ صبري وظاهرتُ الشجون على

قـلبي وسُقـتُ إلى أجـفـاني الأرقـا

إذا تـذكـرتُ فـاضـت مـقـلـتـي بـدم

وإن تـأوهـت ذابـت مـهـجـتـي حُـرَقـا

وإن رجـعـت إلـى قـلـب لأعـذلـه

وجـدتـه بـاخـتـيـاري ذاب واحـتـرقـا

من هذه النماذج نخلص إلى القول بأن صورة الوضوح تتردد في الشعر الأصيل بوجهها المشرق الذي يأبى الالتباس.



وقفة على تعاكس الهجاء والمديح في القلة والوفرة!!

والذي قد درس الشعر من زاوية تنوع أغراضه، لا بدّ أن يدرك أن من الأغراض الرئيسية المطروقة: الغزل، والمديح، والرثاء، والهجاء، والوصف، وما سوى ذلك فضروب مختلفة تسببها ظروف يمر بها الشاعر فيسجلها شعراً يخلد منه تاريخ الأدب ما كان أدباً كالتراسل والمداعبات وما إلى ذلك.

وإذا ما نظرنا في شعر القدامى بشكل عام وجدنا أن الهجاء والمديح كانا من أهم الأغراض الشعرية التي كان الشاعر يصطحبها، وكلما أوغلنا في عمق تاريخ الأدب وجدنا أن هذين الغرضين من أوفر ما خلقه لنا الشعراء القدامى من تراث شعري.

والملاحظ في ذلك أن الهجاء والمديح يسيران من حيث القلة والوفرة جنباً إلى جنب في شيء من التزاحم حيناً، وحيناً يحصل لهما التعاكس والتخالف في الاتجاه، وهذا الأمر يخضع لطبيعة الشعراء ولكثرة المغدقين عليهم.

وإذا ما تسابق الكبراء والوجهاء والأعيان وأصحاب السيادة والقيادة على الإغداق عليهم كانت الغلبة من حيث الوفرة للمديح، وإذا لم يكن إجماع على صلة الشعراء أصبح المديح والهجاء في تعادل من حيث الكم، أما إذا حصل التقصير في حقهم ـ والمعنى بذلك الشعراء ـ لعامل البخل مثلاً، أو لعدم المبالاة بشأنهم، فإن الغلبة تكون للهجاء، والشاهد من الشعر على ذلك ربما يكون فيه إجحافاً ووصفاً غير لائق

بالشاعر، لكنه شعر شاعر قيل أنه للبيد بن ربيعة، لكنني لم أجده في ديوانه، وهو قوله:

الكلب والشاعر في منزل
فليت أني لم أكن شاعرا

هل هو إلّا باسط كفه
يستطعم الوارد والصادرا

ولعل الشاعر أسعد بن مسعود بن علي بن محمد بن الحسن العُتْبيّ المولود عام ٤٠٤هـ كان من المنصفين في الإثارة إلى هذا الموضوع حيث قال:

قالوا تغير شعره عن حاله
والهم يشغلني عن الأشعار

أما الهجاء فمنه شيء زاخر
والمدح قلّ لقلة الأحرار

وإذا كانت المادة تجتر العواطف فمن الطبيعي أن يصنع الشعراء شعراً يكون نسيج عواطفهم، بقول الشاعر علي الجارم:

الشعر عاطفة تقتاد عاطفة
وفكرة تتجلى بين أفكار

الشعر إن لامس الأرواح ألهبها
كما تقابل تيارٌ بتيار

والشاعر القروي واسمه: رشيد سليم الخوري يرى أن الاشتغال بغير الشعر لا يأتي إلّا بمكسب قليل.

قلت: ولا أظن أن مكسباً يأتي من الشعر إلّا إذا كان الشعر مديحاً، يقول القروي:

يا من يلوم ابن التراب لشغله

بالفلس عن شعر وعن شعّار

أرأيت في المرعى حماراً عاقلاً

يلهو عن الأعشاب بالأزهار



تركة زاهد

والزهد في الدنيا على طرف نقيض من الحرص عليها، وهو لا يتأتى لكل إنسان لا يقاس في المقابل من حيث الكم بالحريص عليها، فالزهّاد في كل عصر من العصور ربما عدوا على أصابع اليد الواحدة، والسبب في ذلك يعود إلى أن النفس مجبولة على حب المال، والسعي الحثيث في طلبه، كيف لا والتسابق قائم على جمع المال وادخاره منذ الأزل، والتفاخر بكثرة الأموال أمر سائد في كل عصر ومجتمع.

والسعي لكسب المال والتفرغ له لا يتفق من حيث مبدأ الاشتغال بالتجارة مع الزهد في الدنيا والانصراف كلية للعبادة.

ولست أقصد بما تقدم مقارنة أو مفاضلة بين الحياة العملية المرتبطة بالاشتغال بتثمير المال وإنمائه والتوسع في التجارة، وبين الزهد في الدنيا والاكتفاء بما يقيم الصلب من لقيمات العيش، بقدر ما أريده من الوقوف على حياة زاهد من الزهاد هو الشيخ علي بن إسرافيل الشهير بقنالي زاده ولد عام ٩١٨هـ وتوفي سنة ٩٧٩هـ الذي يتعيش بكسب يمينه ويقتات من عرق جبينه وصف بأنه ميزاب عين الحكمة، وأنه إمام عالم بليغ واسع المعرفة كثير الافتتان جارياً في مجاري المعارف بغير عنان، وأنه قلّد جيد الزمان من منثوره ومنظومه ما قلد.

ومن نظم علي بن إسرافيل منظومة وصف في جزء منها حالة الزاهد في الدنيا، وقال: إنه إذا ما مات زاهد فإنه تركته لا تزيد على كذا وكذا، وراح يذكر ويسمي تركته: وذلك بقوله:

إن مـات لـم يـتـرك لـه درهـمـاً
يـحـوزه الـوارث مـن بـعـده

ولا أثـاثـاً لا ولا مـلـبـسـاً
يـصـلـح لـلـبـيـع سـوى بُـرده

وفـورة جـرداء مـن عـتـقـهـا
أضـلاعـه تـرعُـدُ مـن بَـرْده

وطـيـلـسـان خَـلَـقٍ دمـعـه
مـن عـتـقـه يـجـري عـلـى خـده

ولـم يـكـنْ يـتـركُ شـيـئـاً إذا
فـارقـه يـأسـى عـلـى فـقـده

غـيـر بـقـايـا كـتـب رثّـةٍ
أكـثـرهـا قـد مـات فـي جـلـده

يـبـاع فـي تـجـهـيـزه بـعـضـهـا
والـبـعـض وقـف لا عـلـى ولـده

هـذا لـعـمـري عـرض حـالـي لـذا
مـن أجـمـع الـنـاس عـلـى حـمـده

بقي أن أقول: إنه لا تعليق على ذلك سوى أننا لو سئلنا، هل يوجد في عصرنا هذا زاهد بالأوصاف التي تقدمت؟ لأجبنا إجابة قطعية بـ«لا»، اللّهمّ إلّا من يخفون علينا ولا تصلنا أخبارهم.



قصيدة يُنَصِّفُ كل بيت منها لفظة أولها «أحـ»!!

وعَدَمُ الظن بأن ما يصنعه بعض الشعراء من أشعار تحتوي على ألفاظ مترادفة أو يؤلف بينها عامل مشترك لا تفرضه القافية القائمة بطبيعة الحال يرقى إلى الاعتقاد بأن تلك الألفاظ لا تأتي إلى الشاعر منساقة بطبيعتها ليقتنص منها الكلمات التي تأخذ صفة معينة من حيث الشكل والهيئة في كل بيت من أبيات بعض قصائده.

والقارئ الذواق يقف أمام القصائد ذات السمة اللفظية المتميزة إما للتعجب من سوء حال القصيدة إن كان آثار الصنعة ظاهرة عليها، أو لاستحسان نظامها، وقوة اتساق بنائها.

إذا ما اصطحبنا وجهة نظر الناقد لما تكون عليه تلك القصيدة من هيئة متحيزة عن سائر القصائد، حقق لنا أن شاعرها كان متعمداً بناءها على هذه الصفة لتكون ذات طابع خاص وسمة معينة، وأن براعته قد أخفت عن عيون القراء كل ما تكالفه في صناعتها.

ومثل هذا ما صنعه الشاعر محمد شهاب الدين بن السيد إسماعيل المصري بإحدى قصائده التي ضمنها ديوانه، حيث اختار ألفاظاً مبدؤه بالألف والحاء، وجعل كل لفظة عنه مقسومة بين صدر البيت وعجزه مراعياً بذلك مناسبتها لسياق التعبير وموافقة للتفعيلة ووزن البيت بحيث تكون ـ الألف والحاء ـ من كل كلمة في آخر صدر البيت والبقية في أول عجزه، وذلك مثل قوله من أبيات قصيدة له بناها بتلك الطريقة:

سدل النقاب وزار وهو يقول احـ

ذر أن يرى وجهي فجئت منقبا

فسألت كيف البدر يحجب قال أحـ

ـسن ما بدا لك بعد أن يتحجبا

ناديت يا بدر ما اسمك قال أحـ

ـمد وانثنى يحكي بلفتة الظبا

فسألت ما صفة الغزال فقال أحـ

وى قد حوى حسناً وكم عقلاً سبى

فأجبت صف ورد الخديد فقال أحـ

ـمر قد زها الوجنتين وأعجبا

فسألتُ كيف الريق قال تراه أحـ

لى ما يكون لدى المذاق وأعذبا

فدنوت أستدعي الوصال فقال أحـ

ـسب طبع من يهوى الملاح مهذبا

وأبان عن سيف اللحاظ وقال أحـ

ـمى الحمى ممن جاء يطلب مأربا

وعلى هذه الوتيرة سار بتلك القصيدة التي تبلغ نحواً من ٢١ بيتاً.

والحقيقة أن هذا يدل على مهارة مكنت الشاعر من التلاعب بالألفاظ، وتطويع الكلمات بمقدرة لغوية وإبداع فني في صياغة الشعر.



القصيدة الاجتماعية، رشتة طبيب!!

وإذا كان الطبيب يُشَخِّصُ الداء ويصف الدواء للمريض الذي يتولى معالجته فإن الشاعر لا يقل أهمية عنه خاصة حينما يرى بأم عينه حالة اجتماعية تدعو مأساويتها إلى لفت أنظار الآخرين إليها، ليمدوا لها يد العون، وليجعلوا من أنفسهم بلسماً يمسح معاناة صاحبها، بل لا يتأخر عن وصف تلك، ولا عن عرضها في صورة تجتذب النظر، وترمق النفس، وتستدر الكف.

ولكن وصف الحالة الاجتماعية المأساوية التي تستدعي النجدة تختلف صياغة أسلوبها من شاعر إلى آخر، إذ هي من الشاعر الذي قد قاسى نفس الحالة أو ما يقرب منها من حيث ألم المعاناة، تكون أوضح أسلوباً، وأقوى تعبيراً، وأشد تأثيراً في نفس المتلقي.

أما إذا جاءت الوصفة من شاعر لم يذق طعم المعاناة وإنما تأثر بمجرد النظر إلى واقع الحالة، فإن التعبير الشعري عنها يكون أقل في درجة حرارته من شعر الشاعر الذي عانى من نفس الحالة أو مما يماثلها في جوانب الحياة الاجتماعية.

وإذا ما صرفنا النظر عن المقارنة بين الشاعرين من حيث قوة ترجمة شعور كل منهما، وبحثنا عن نموذج من نماذج الشعر الاجتماعي بصفة عامة، والذي هو أشبه ما يكون بوصفة الطبيب للمريض، فإن بين يدي قصيدة للشاعر الدكتور عبد الهادي حرب، يصف فيها حالة فتاة حملها الفقر على التسول.

يقول من تلك القصيدة الوصفية الجميلة:

وبُنيّة لم تكمل العشرا
حفر الزمان بمهدها قبرا

حسناء لو رفق الزمان بها
لأتت محاسنه لها أمرى

جاءت إليّ بغير معرفة
ورنت إليّ بمقلة حسرى

وتخيّرتني دون من حضروا
تشكو إليّ البؤس والفقرا

كانت تخاطبني وفي يدها
قرش تنقله إلى اليسرى

وتريد مثل القرش من شيخ
مثلي يراه الفتنة الكبرى

والطريف في هذا أنه وصف نفسه بأنه لا يملك ما يضيفه إلى القرش الذي بيدها، وإنما الذي يملأ جيوبه قصاصات ورق ممتلئة بالشعر.

وهل يملأ الشعر بطن جائع فقير؟

ما كان في جيبي سوى نغم
قد خاصم المذياع النشرا

فسلبت ما معها براجفة
ونقدتها الأشعار بالأخرى

والقصيدة أطول من ذلك وإنما وقع الاختيار على تلك الأبيات منها.

أبو هدرس الجنّي، وما روي عنه لأبي العلاء المعري!!

في رسالة الغفران لأبي العلاء المعري المولود عام ٣٦٣هـ والمتوفى عام ٤٤٩هـ، أشياء فيها من الغرابة ما يجعل الفكر يقف متعجباً منها.

ولعل الذي يناسب موضوعنا هذا مما في تلك الرسالة، ما حصل من أبي العلاء من مساءلة لبعض العفاريت، وهي مساءلة كان أبو العلاء يهدف من ورائها إلى طرح شيء من آرائه النقدية حول الكثير من شؤون الحياة الأدبية والسياسية والاجتماعية، من ذلك أنه كان كما يحلو لخياله الأدبي، في جَنَّةِ العفاريت وأنه التقى أحدهم فسأله عن أشعار المردة، فيقول له: لقد أصبت العالم بحقيقة الأمر.

وهل يعرف الإنس من النظم إلّا كما تعرف البقرة من علم الهيئة، ومساحة الأرض، وإنما لهم خمسة عشر جنساً من الموزون قلّ ما يعدها القائلون، وإن لنا لآلاف الأوزان ما سمع بها الإنس وإنما كانت تخطر بها أُطيْفالٌ منا عارمون[1]، فتنفث إليهم مقدار الضوازة[2] من أراك نعمان، ولقد نظمت الرجز والقصيد قبل أن يخلق الله آدم بكور أو كورين، ثم يسأله عن اسمه فيقول: إنّه يدعى (الخيثعور)، وأنهم من غير ولد إبليس، وأنهم من الجن الذين سكنوا الأرض قبل آدم عليه السلام، ثم يلقى في جنة العفاريت شاعراً يسمى أبا الهدرس فيسمع من نظمه قصيدة يقول فيها عن أيام طاعته لإبليس:

---

(١) العارم: الشرس.

(٢) الضوازة: شظية من السواك.

نحارب اللّه جنوداً لإبـ
ـليس أخي الرأي الغبين النجيس[1]

نسلم الحكم إليه إذا
قاس فنرضى بالضلال المقيس

نزين للشارخ والشيخ أن
يُفْرِغَ كيساً في الخنا بعد كيس

ونخدع القسيس في فصحه
من بعد ما مُلّئَ بالأنقليس

أصبح مشتاقاً إلى لذةٍ
معللاً بالصِّرف أو بالخفيس[2]

أقسم لا يشربُ إلّا دُويْـ
ـن السكر والبازلُ تالي السديس[3]

قلنا له ازدد قدحاً واحداً
ما أنت إن تزداده بالوكيس[4]

فعبَّ فيها فوهى لبُّه
وعُدّ من آل اللعين الرجيس



(١) الأقليس: سمكة كالحية بحرية نهرية.

(٢) الخفيس: الكثير المزج. والمخفس: السريع الإسكار.

(٣) البازل: البعير انشق نابه. والسديس: قبل البازل. والمراد هنا أن الكأس تتلو الكأس.

(٤) الوكيس: الخاسر. يقال: وكس التاجر في تجارته: خسر.

هل الأحمق كالديك؟!!

هذا المثل: «الرجل الأحمق كالديك الذي يؤذن في غير وقت» قرأته غير منسوب لأي شعب من الشعوب.

ولما له من جمال لفظي وجاذبية عليها مسحة من الحكمة وبساطة التعبير الذي قد هيأه للانصباب في الأذن، والاحتفاظ به في الذهن صار له في النفس وقع وحسن قبول، لكن النظر بإمعان في معناه، ربما كشف عن إجحاف من حيث المقارنة في تشبيه حمق الرجل بعدم ضبط الديك للوقت الذي يعتاد الصياح فيه على مدار الساعة.

فالحمق فيه ضرر على صاحبه وفيه إساءة إلى الآخرين، بل يترتب عليه ما لا يقارن بما يترتب على أذان الديك في غير الوقت المعتاد لأذانه.

والمثل من حيث تحليل معناه يمسه الضعف إلى حد ما.

أما من حيث ظرافته وطرافته فهو غاية في الحسن، بل ومقارب نوعاً ما وبنسبة ضئيلة جداً من واقع التشبيه.

وعلى العموم فالمثل قد أعجبني بما فيه من الصفات الإنشائية التي أشرت إليها آنفاً، ومع إعجابي به فهو قد أيقظ شوارد أبيات لها ارتباط بالديك وسلوكياته وعلاقة الإنسان به، كان نوماً في ذاكرتي، من تلك الأبيات التي يحسن بي أن أذيل بها هذا الموضوع قول الشاعر النصراني الأخطل:

مـاذا يـؤرقـنـي والـنـوم يـعـجـبـنـي

مـن صـوت ذي رعـثـات سـاكـن الـدار

كـأن حُـمّـاضـة فـي رأسـه نـبـتـت
من آخـر الـلـيـل قـد هـمـت بـأثـمـار

وقد يكون الديك بصفته وهيئته مثلاً يصطحبه الشعراء في أساليبهم الهجائية في بعض الأحيان، وذلك مثل قول الشاعر الحكم بن عبدل حينما هجا أحدهم:

مـررتَ عـلـى بـغـل تـزفـك تـسـعـة
كـأنـك ديـك مـائـل الـرأس أعـور

تـخـيّـرتَ أثـوابـاً لـزيـنـة مـنـظـر
وأنـت فـي وجـهٍ يـزيـنـك أفـقـر

ويقول ابن المعتز واصفاً معاقرة الخمر في الليل:

بـاكـرتـهـا والـنـجـوم غـائـرةٌ
والـصـبـح قـد حـان مـنـه إسـفـار

وصـاح فـوق الـجـدار مـشـتـرف
كـمـثـل طِـرْف عـلاهُ أسـوار[1]

ثـم غـدا يـسـأل الـتـراب عـنـد الْـ
ـأرزاق رِجْـلُ لـه ومـنـقـار

رافـع رأس طـوراً وخـافـضـه
كـأنـمـا الـعـرف مـنـه مـيـشـار



(١) الاسوار: الثابت على ظهر الفرس.

أطول قصيدة معارضة لقصيدة، ليل الصب!!

لا أدري كيف يكون لقصائد بعض الشعراء دويٌّ ينساب مع الرياح ويقع في أذن العشاق موقع الإطراب، بل إن بعضها يكون له أجنحة يحلق بها في سُمي الآداب، فلا يكاد يجف حبر ناظمها إلّا وهي في ذاكرة الرواة وتحفة الركبان وحديث السمار.

وفرائد القصائد التي كان لها في تاريخ الأدب شأن ومكانة، ليست بالكثيرة، وإحصاؤها ربما لا يكون من المتعذر، والدلائل على كون القصيدة فريدة من نوعها كثيرة، لعل منها تناقل الرواة لها، وكثرة معارضتها بقصائد لشعراء أملى عليهم طربهم لها اقتفاء أثر نغماتها وإيقاع قاضيتها.

ولا أريد هنا أن أعد القصائد التي نالت شهرة وحظيت بمعارضات منقطعة التظهير بقدر ما أريد الوقوف عليه كنموذج من حيث طول النفس لأتخذ منه شاهداً على التفرد، كما لا أريد الوقوف على القصيدة نفسها التي طار صيتها وهي قصيدة «ليل الصب» لأبي الحسن علي بن عبد الغني الفهري القيرواني المولود عام ٤٢٠هـ والمتوفى عام ٤٨٨هـ والتي كانت من أهم القصائد التي نالت إعجاب الشعراء فحظيت بتسابقهم على معارضتها مما جعلها أكثر القصائد معارضة، على الإطلاق.

أما أطول قصيدة قرأتها من قصائد معارضة «ليل الصب» التي تبلغ ٩٩ بيتاً ومطلعها:

يا ليل الصب متى غده
أقيام الساعة موعده

فهي قصيدة للشاعر العراقي جميل أحمد الكاظمي المولود بالكاظمية سنة ١٩٠٥م، وقد بلغت أبياتها ١٢٦ بيتاً، استهلها بأبيات خمرية موصولة بذكر الطرب والغناء ومجالس الأنس وذكر الغواني ووصف الرشاقة ومواقع الجمال، وذلك بقوله:

ممشوق القد نما غصنا
معطور الخد مورَّده

سحر في العين رمى مهجا
بسهام اللحظ يسدده

ثم ما يلبث إلّا ويؤكد انصرافه عن تلك الملذات التي ليست بمباحة ويعلن تجرده منها:

حمداً للّه على كرم
بلسان الشكر أورده

تزداد النعمة في شكري
ويدوم العيش ومورده

ويزيل الطهر قذى إثم
عاطاه الليل مسهده

وطهور الماء به أمحو
للرجس يعيه ملبِّدُه

وأؤم المركع في وقت
قد أم المسجد سُجّدُه



الشعراء يعقدون بأيديهم البنان الرقيقة
والخصور الناحلة!!

نقرأ في كثير من الأشعار الغزلية صوراً موغلة في المبالغة في وصف بعض مفاتن جسم المرأة، ومواقع الجمال الذي تلاحقه عين المتغزل.

وإذا كان قولهم - أعذب الشعر أكذبه - فإن الكثير من هذا اللون من الشعر بمبالغاته وفنياته يأتي في صور غزلية تستوقف القارئ وتطربه أيما اطراب.

والذي أردت الوقوف عليه في هذا الموضوع القصير جداً هو قولهم - والمعني بذلك الشعراء - حينما يصفون نعومة بنان الغواني ورقتها بأنه يمكن عقدها، وذلك مثل ما جاء في القصيدة - الدعدية - أو اليتيمة، والتي قيل: إن قائلها هو (دوقلة المنبجي) وقصتها منتشرة في كثير من كتب التراث الأدبي ولم يختلف الرواة على مضمونها بقدر اختلافهم على معرفة قائلها، ومطلع تلك القصيدة هو:

هـل بـالـطـول لـسـائـل ردُّ
أم هـل لـهـا بـتـكـلـم عـهـد

ومنها وصف لطافة ورقة ونعومة بنان دعد قوله:

ولـهـا بـنـان لـو أردت لـه
عَـقْـداً بـكـفـك أمـكـن الـعَـقْـدُ

وبـصـدرهـا حـقـان خـلـتـهـمـا
كـافـورتـيـن عـلاهـمـا نـدُّ

ومن الشعراء الذين يرون أنه من الممكن عقد الخصر لنحوله الشاعر كمال الجبوري المولود في استانبول بتركيا عام ١٩١٧م، وذلك من قصيدة عارض بها قصيدة «ليل الصب» لأبي الحسن علي بن عبد الغني الفهري القيرواني المولود عام ٤٢٠هـ والمتوفى عام ٤٨٨هـ: يقول الجبوري من تلك القصيدة الغزلية:

والخصر نحيل من هيف
إن رمت بكفك تعقده

والردف ثقيل من كبر
إن قام لأمر يقعده

والجسم تروقك بضته
والقدُّ بمور تأوّده

وبقامته غصن رَطْبٌ
يهتزُّ بمشي أملده

أما الشاعر الصولي واسمه: أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين كان في نحو سنة ٢٦٠هـ في بغداد شاباً صلب العود ومات بالبصرة سنة ٣٣٦هـ، فقد أنشأ قصيدة أرى أنها بحكم تقدمه من حيث الزمن على الحصري أجدر بأن تكون معارضات «ليل الصب» معارضات لها لتقدم الصولي على الحصري كما أسلفت، من تلك القصيدة قوله بأن لحظه يكاد يحلّ ويعقد محبوبته لكونها رقيقة ولينة:

يكاد من لينه ورقته
تحلّهُ لحظتي وتعقده



حجته.. أن بها حياء!!!

قال محدثي: خطب إليّ فلان من الناس ابنتي، فما رددت خطبته حيث استولى على مشاعري بمظهره الذي يوحي بأنه من الملتزمين الذين يبحثون عن ذوات الدين، بل غمرتني الفرحة بطلبه، وقلت في نفسي: سيشبهان عند زواجهما المثل القائل: «وافق شن طبقه» فأظهرت الموافقة وفرشت له بساط القبول، ورفعت عن كاهله في بداية الحديث جميع التكاليف التي تجعل جيوب الشباب خالية خاوية فترة طويلة من الزمن.

وبعد أيام جاء متأبطاً ظرفاً من الورق مملوءاً بأربعين ألف ريال، فأخذت عشرين ألف وأعدت الباقي إليه ليستعين به على متطلبات الزواج الخاصة به، فأخذه وما أبدى كلمة شكر، قال: فقلت في نفسي: لعله أذهله الموقف فنسي شكري.

قال: ثم بعد أيام قليلة تمت مراسيم الزواج الذي اقتصر على حضور عدد قليل جداً وأهله في منزلي، وبعد تناول العشاء اصطحب زوجته إلى منزل والده ومنه إلى المطار، وبعد أن أمضى في جدة أقل من أسبوع عاد إلى منزل والده.

قال محدثي: وفي تلك الأثناء تسربت إليّ أخبار غير سارة كلها تجمع على أنه يصاب بنوبات من الصرع يفقد بسببها وعيه ويتخلى عن إنسانيته، لكنه يتناول حبوباً مضادة لذلك، وأنه سبق وأن تزوج مرتين وطلق الأمر الذي يضفي عليه صفة المزواج، قال: فقلت في نفسي لعله لم يظفر بما تجمع بين الجمال والدين، وليته أخبرني بذلك في بداية الأمر لتكون البنت على بصيرة من الأمر، ولا أفاجأ بأخباره تلك، وما

هي إلا أيام قليلة وإذا به يكرر طبعه في ابنتي حيث جاء بها وقد حَمّلَهَا ما يشبه رسالة فحواها: «لا تلوميني ولا تلومي نفسك ولومي أهلك الذين لم يسألوا عنّي»، وحصل بعض المفاهمة التي تأكد لي من خلالها أنه لا يرغب في بقائها زوجة له بحجة أن بها حياء وما علم أن الحياء شعبة من الإيمان.

قال محدثي: فطلقها بهذه الحجة!!! قلت له: لا تحزن فقد تربتْ يداه إن كانت هذه حجته، وسيخلف الله على ابنتك من يقدر قيمة الحياء في المرأة.

وإني لواثق أنه إن كان يعرف شيئاً من الشعر المتعلق بالطلاق فإنه سيردد أبيات الفرزدق التي أظهر فيه ندامته على طلاق زوجته نوار وهي قوله:

ندمتُ ندامة الكسعي لمّا
غدت منّي مطلقةً نَوَارُ

وكانت جنتي فخرجت منها
كآدم حين لج به الضرار

وكنتُ كفاقئٍ عينيه عمداً
فأصبح ما يضيءُ له النهار

ولا يوفى بحبِّ نوارَ عندي
ولا كلفي بها إلّا انتحار

ولو رضيتْ يداي بها وقرت
لكان لها على القدَرِ الخيار

وما فارقتها شبعاً ولكن
رأيتُ الدهر يأخذ ما يُعار

ولكأني به يصيح بين جنبات نفسه صائح ينشد قول الشاعر أبي عثمان بن لؤون التجيبي:

تـثـبَّـتْ بـالأمـور ولا تـبـادر
لـشـيء دون مـا نـظـر وفـكـر

قـبـيـح أن تـبـادر ثـم تـخـطـي
وتـرجـع لـلـتـثـبـت دون عـذر



فهرس الجزء الرابع عشر